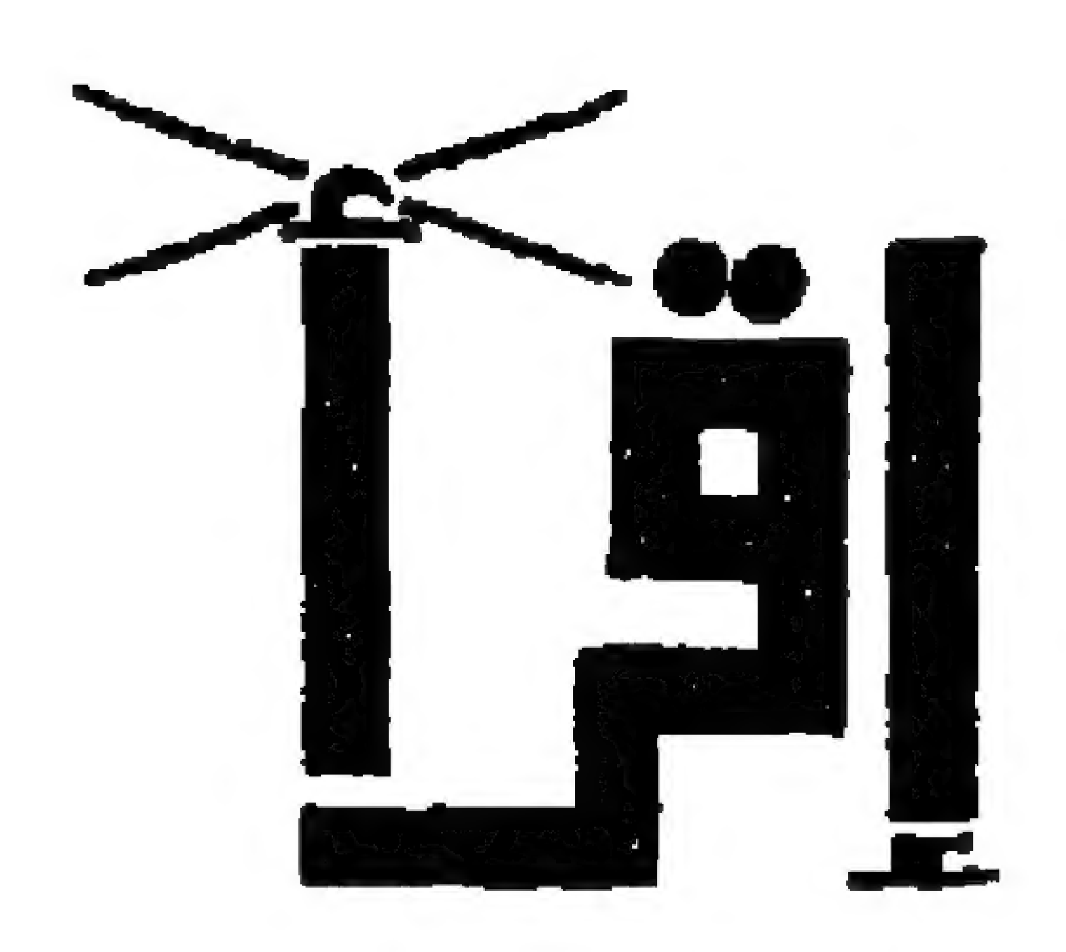
اقرأ

محمد زكي عبد القادر

مختارات من

نحو النور



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : السيد أبو النجا





محمد زكي عبد القادر

مختارات من

نحو النور

اقرأ ٣٤٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٨ - ديسمبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

مقدمة المؤلف

هذه مختارات من « نحو النور » وهو العمود الذى اعتدت كتابته يومياً منذ سنوات كثيرة ، تحريت فى اختيارها أن تكون ذات قيمة دائمة لا يغض منها الزمن ، ولا تتعلق بمناسبة من المناسبات ، لأنها ترجع إلى طبيعة الإنسان : نفسه وروحه ووجدانه ، وليس فى طبيعة الإنسان ما يتغير تغيراً جذرياً ، قد يتطور الإنسان ، قد يتغلب ، قد يتوهج أو يخمد ، ولكنه فى كل الأحوال مرتد إلى نواميس ثابتة تتعدد فيها الصور والوجوه والانفعالات ، ولكن الجذور التى تصدر عنها واحدة فى كل زمان ومجال ومكان .

وفى هذه المختارات لمحات عن الحرب والسياسة والاقتصاد ونظم الحكم ، كما أن فيها لمحات عن الحب والكراهية والحقد والطمع والتظاهر والغرور والنفاق والكذب ، وفيها لمحات عن الدين والإيمان ووحدة الكون وسلطان الطبيعة . . . فيها صور رقيقة أو عنيفة لشخصيات نراها ونعرفها ونعايشها ، وفيها أيضاً لمحات عن المعوج من أمورنا وما نرجو لها من صلاح .

ومنذ أمد طويل أشار على الكثيرون أن أجمع من « نحو النور » ما لا صلة له بالحوادث والمناسبات والشئون الجارية ، أضمها فى كتاب أو أكثر مما يجلوها ويجعل لها طعماً جديداً ومتجدداً على الأيام .

وهأنذا أبذل المحاولة الأولى ، لعل التوفيق يصاحبها .

محمد زكى عبد القادر

الله

هذا الليل فى رخاء حنانه . نجومه اللوامع الغوامض .

خرجت إليها بالأمس أستجليها السر ، وأسألها الضياء . كان الكون شبه نائم ، والنسيم يهفو تارة ويصمت أخرى كأنه الأمل فى صدر عاشق .

أفى سر هذه الطبيعة يكون سر الوجود ؟ أأجد فى أحضانها ما يطامن الحيرة ويقطع الشكوك ؟ وجلست إليها . أنا وهى ونفسى . أنا والأزل والأبد . وهذه النجوم التى تظل ساهرة لا تنام . الغفوة حرام عليها ، والهجعة بعض وساوس الشيطان . تجرى فى أفلاكها تعد الأخطاء والخطايا ، وتطوى فى صدرها الأحزان والأسرار . حتى إذا خلونا إلى عيونها المسهدة ، ألفينا فى نجواها الهناءة والعزاء .

إنى لأهتف بك أيتها الصواحب فى هجعة الليل أبثك شجنى ، فإذا بيدك الرضية تمسح عن صدرى وقلبى . وإنى لأسألك سر الوجود الذى حيرنى فتصمتين ، ولكننى أراك فى صمتك أبلغ منك مقالا .

تبارك الله العلىّ العظيم الذى منحك هذه الأسلاك والأفلاك ، تجرين فيها بقدر معلوم ، ومنحك الليل يطوى عليك ضلوعه الحانية ، ونلقى نحن فى غموضه النور ، وفى وحشته السلام . يودعه الناس أسرارهم وأخطاءهم ودموعهم ، فيكون لها خير الحافظين . ويستردونها منه هناء وسلاماً وعزاء فيعطيهم منها فوق ما يريدون .

هذه الهواتف الغامضة التى تبدو فيه وكأنها تناجينا . هذه الأرواح التى تحوم فى الأفق وكأنها تمسح أخطاءنا وخطايانا . المذنب كأنه يكفر عن ذنوبه . تسكت فى صدره كل النزوات والشهوات .

٧

لكأن فى الليل قوة خفية تمنح الصالح السرور والسلام ، وتطهر المذنب من وساوس الشيطان ، وتأخذ ثمن الذنب توبة أو ندماً .

هذه القوة الخفية هى الله . .

هى سر الوجود !



ذكريات العيد

أحب ما فى العيد إلى نفسى أنه يعيد إلى خاطرى ذكريات عزيزة . . . أنه يجعلنى أعيش فى الماضى لحظات هى أسعد ما فى الحياة ! أحب ما فيه إلى أن أخلو إلى نفسى فأعود بها وتعود بى إلى الأعزاء الذين فقدت ، والذين كانوا فى مثل هذا اليوم من كل عام نعمة القلب ، أسكن إليهم ويسكنون ، أفرح بهم ويفرحون ، أحس وإياهم نعمة الحياة ويحسون ، أما الآن فما هو العيد — وقد حرمت هناءة القلب فى بكور العمر — إلا أن أعود إلى هؤلاء الذين يثوون فى القبور ! إن الموت ليجردهم أمامى من كل أطماعهم وأوزارهم وشهواتهم ، إنه ليسمو بهم إلى الملأ الأعلى فأحسبهم كالملائكة طهراً ونوراً ، وأحس وأنا على هذه القبور ضآلة كل ما يشغل الناس ويؤودهم ويحزنهم ويصرعهم من الشهوات والأحقاد والآمال والآلام . . . ما لهم لا يزورون القبور ؟ . . . ما لهم لا يزورونها فى يوم عيد ؟

إن من القبر — كما يقول واشنجطون إرفنج — ينبعث صوت أحلى من النغم ، وإن مع الموتى من الذكريات ما تطيب له النفس أكثر مما تطيب مع الأحياء .

وأخيراً ما هى الأعياد ؟ إنها وقفات فى صحراء الحياة ، ولفتات إلى الوراء وإلى الأمام ، أما الموكب الأكبر الحافل الزاخر الصاخب ، موكب الحياة ، فإنه يسير . يسير حتماً إلى غايته ، يتخلف عنه من يتخلف ، ويلحق به من يستطيع اللحاق !

اختيار

أعظم شيء يتردد أمامه الرجل هو اختيار المرأة التى تشاركه الحياة . وهو قد يجازف بكل شيء حتى بثروته، بل قد يجازف أحياناً باسمه وسمعته . قد ينسى كل النصائح التى وعاها وتعلمها ، وهو يلتمس الثروة أو الجاه أو النفوذ ، ولكنه قلما يفعل ذلك وهو يلتمس شريكة حياته . . إنه يعرف أن فى رؤوس النساء شيئاً ناقصاً ، وفى قلوبهن شيئاً زائداً . يعرف أن البيت الذى يفقد المرأة الصالحة يصبح كالقبر . . . وهو حين يختار ، يخبط بقدمه فى الظلام . يشك فى كل الأشياء والأشباح . يسأل ويسمع . . . ولكنه قلما يصدق .

وبعض الناس يجرون وراء الخيال فيطلبون الأغنى والأعلم والأجمل ، وبعضهم الآخر يطلب الأغنى . . . وكلهم ، أو أكثرهم يطلبون واحدة أفضل منهم . . . قليلون هم الذين يفهمون أن الشركة فى الحياة كالشركة فى أى شيء آخر ، وأن الكمال المطلق لاوجود له . . فهم يأخذون أقل ما يمكن من العيوب ، وأكثر ما يمكن من الفضائل . وقلما يجتمع العلم والجمال والمال والخلق . . . فإن أحدها يطرد الآخر . قد يطرد المال الخلق ، وقد يطرد الجمال التواضع والقناعة .

وقد ينفق الشاب عشر سنوات يبحث عن زوجة ثم يقع آخر الأمر فى مصيبة . . . لأنه لم يفهم جيداً قيمة نفسه . أراد دائماً أكثر مما يمكن أن تعطيه ظروفه وعيشته ودخله . فأول شرط للاختيار الحسن هو أن تضع نفسك موضعها . أن تزن كل مؤهلاتك : دخلك ، مركزك ، سنك ، أخلاقك ، الوسط الذى نشأت فيه ، الأسرة التى تنتمى إليها.

وبعد ذلك تفكر فى الفتاة التى تكون لك . تزنها بالمقاييس نفسها . يجب ألا تطلب من هى أعلى منك . يجب أن تفكر فى أن ترتفع زوجك باسمك ، لا أن ترتفع أنت باسمها . يجب أن تكون هى ظلاً لك ، ولست أنت ظلاً لها . . . يجب أن تشعر دائماً بأنها أضعف منك : أضعف فى كل شىء . . .

ولست أجد هنا أفضل مما أجاب به فيلسوف حينما سئل كيف تريد امرأتك فقال : « أريدها لا بالجميلة فيطمع فيها غيرى ، ولا بالقبيحة فتشمئز منها نفسى ، ولا بالطويلة فأرفع إليها هامتى ، ولا بالقصيرة فأطاطئ لها رأسى ، ولا بالسمينة فتسد على منافذ النسيم ، ولا بالهزيلة فأحسبها خيالى ، ولا بالبيضاء فتكون كالشمع ، ولا بالسوداء فتكون كالشبح ، ولا بالجاهلة فلا تفهمنى ، ولا بالفيلسوفة فتناقشنى الحساب ، ولا بالغنية فتقول مالى ودخلى ، ولا بالفقيرة فيشقى من بعدها ولدى » .



كنوز مخبوءة

فكرت وأنا أنظر إلى هذا البيت الوسيع الذى صمتت فيه الحركة وسكنته الأشباح والذكريات ، أنه إذا كانت المرأة التى لابيت لها تعيسة فإن أتعس منها البيت الذى لا امرأة فيه .

يقول مدلتون : إنى لأحس نفحات النعمة حينما أقترب من البيت الذى تسكنه امرأة صالحة .

ما أسعد الأنفاس التى تتردد فيه حينئذ!

إن تفتح الزهرة فى أكمامها ليس أحلى . . .

إن كنوز الأرض المخبوءة فى أبعد أعماقها ليست أثمن من كنوز الهناءة المتفجرة من قلب المرأة المحبة ، إن فى عينيها لشعاعاً من السماء يظل خفياً لايراه أحد ، مطوياً ـ كالنجوم ـ لايبدو فى ضوء النهار ، ولكن يلمع ويومض فى ساعات المحنة .

وإن أى إنسان ـ كما يقول واشنجطون إرفنج ـ لا يعرف حقيقة المرأة التى تشاطره الحياة مالم تضغط عليه الحياة ، فتصهرها وتطهرها وتظهر كنوز الحب الدفينة فى فؤادها .

إنها حينئذ تكون له الصدر الذى يحنو حين تجمد كل الصدور ، والعين التى تجود وقد جفت كل العيون ، والقلب الذى يحب إذا أبغضت كل القلوب .

إنها حينئذ تكون له المال والشهرة والمجد والصيت والذكر ، بل إنها لتكون أكرم عليه من هذا كله لأنها تمنحه ـ فوق هذا كله ـ الهناءة والسلام .

ويا ويل من لقى هذا الكنز مرة ثم أضاعه !

مساء

لم يكن هذا الطفل أعز على أبيه مما كان أمس . كانا يسيران فى المساء والشمس توشك أن تغيب ، والطفل يسأل فيم مسيرنا بين القبور يا أبى ؟ والأب يقول : أولا تراها خيراً من الشوارع المكتظة بالناس ؟

ولم يفهم الطفل شيئاً ، ولكن رفع إلى أبيه عينين فيهما إشراقة كلها هناءة وقال : قف أنت يا أبى هنا فى قمة الجبل ودعنى أطلع إليك وأنحدر . انظر كيف أستطيع أن أفعل هذا الآن ! ألا تذكر منذ سنة حينما كنا نجىء هنا وكنت لا أستطيع أن أطلع الجبل أو أنحدر عنه ؟ . . . . أنا كبرت يا بابا ! . . .

ولمعت فى عين الطفل بسمة ، واغرورقت عين الأب بدمعة . كانت الشمس قد غابت ، ورسمت على الأفق خيوط الشفق ، كأنها خيوط الأمل . . . وكانت المدينة عند أقدامهما تدوّى كخلية النحل ، ومدينة الصمت الغارق إلى الأبد تبدو وكأنها أرض الحكمة والعقل .

قال الأب : ضع يدك فى يدى يا بنى . إنى أخشى عليك أن تنحدر هنا أو هناك .

قال الطفل وفى عينه شبه عتب : أتراني صغيراً كما كنت بالأمس يا أبى؟ وفيم خوفك على ؟ وليس هنا تراموبات ولا أوتومبيلات . أنا مش قلت لك إنى كبرت ؟ . . .

وحينما وقفا عند هذا القبر العزيز ، سأل الطفل : فيم هذه الأزهار

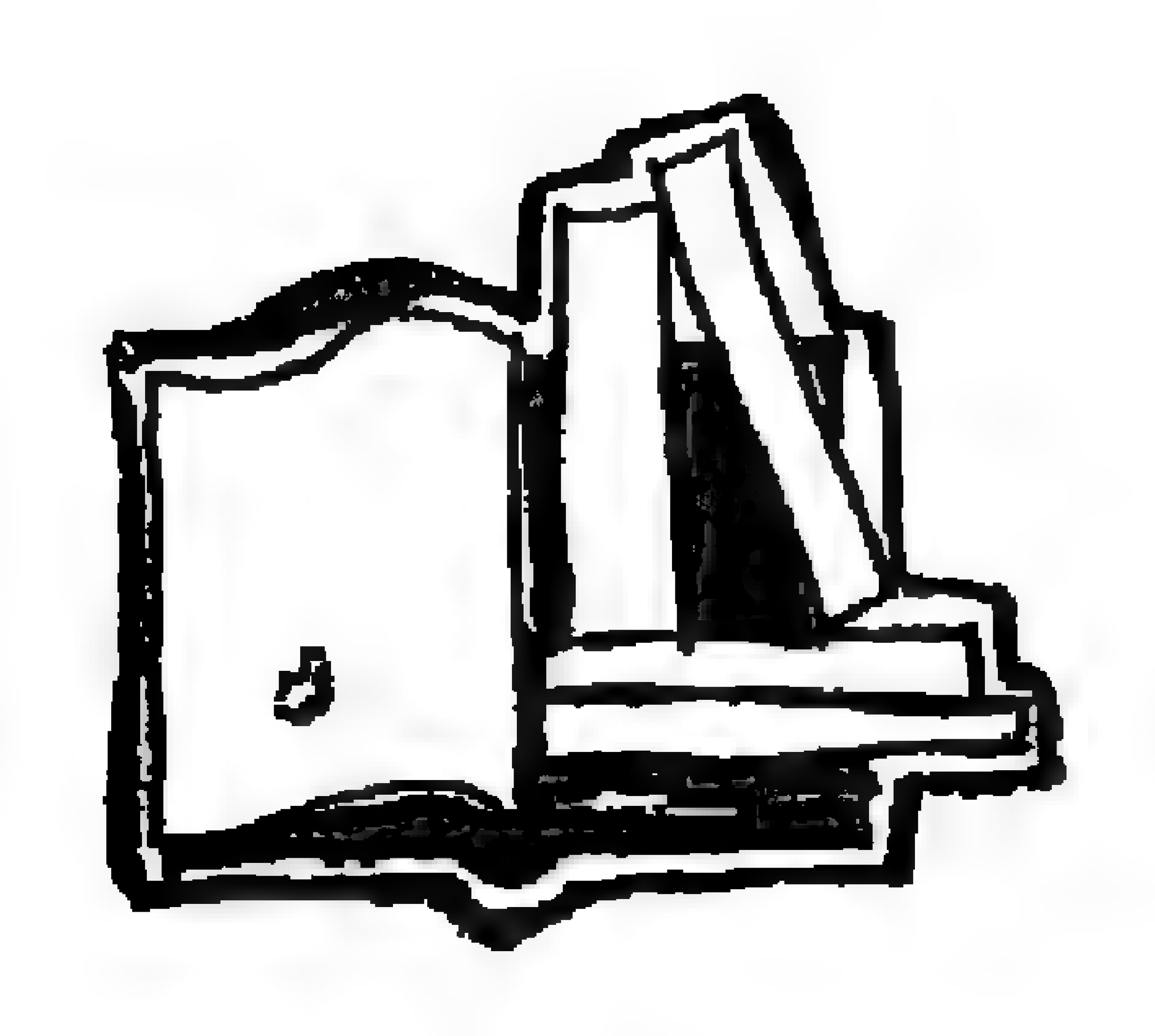
التى تنثرها يا أبى ، إننا حينما نتركها ستجف حتماً . قال الأب وكأنما يخاطب نفسه : بل ستظل مخضرة مزهرة ما ظل القلب ينبض . . .

ولم يفهم الطفل شيئاً ، فعاد يسأل ، فقال له أبوه : دعك يا بنى . . . هيا . . ضع يدك فى يدى .

وحينما انحدرا راجعين ، شعر الأب كأنما يرتد إلى الحياة ، وكأنما يجد نفسه شيئاً فشيئاً . لقد أدى واجب الوفاء للعزيزة الراقدة ، التى ذوت فى عمر الزهور . .

وبينما كانت أصوات الأوتومبيلات والترامويات تضج من حوله كان صوت الطفل يرن فى أذنه « قف أنت يا أبى على قمة الجبل . . أنا كبرت يا بابا ! . . . . »

— نعم كبرت يا بنى . . أنت . . . أنت نعمة الحياة كلها .



مستقبل الزواج

هل يتقدم العلم لحل مشكلات الزواج والعائلة ، أعنى هل يتقدم لتنظيم الأحوال الشخصية للفرد بعد أن تدخل فى تنظيم كثير من حاجاته المادية ؟

إننا نلمح أثر العلم فى الأكل واللباس ، قلما نخطئه فى المدرسة والبيت والمكتب والشارع والجريدة والترام ، آياته ظاهرة فى كل مكان ، فى كل لحظة ، ولكننا حين نفكر فى حياتنا الشخصية ، حين نفكر فى مشكلات الزواج والطلاق ، والسعادة والشقاء، ونتلفت وراءنا وحولنا لانجد العلم ، ولكن نجد التقاليد والوراثات والأفكار الخاطئة حيناً والظالمة حيناً آخر .

والزواج فى نطاقه الحالى يحمل طابعاً من أنانية الرجل ، ومرجعها أنه كان فيما مضى سيد الأسرة ثم سيد القبيلة ثم سيد العشيرة ، وتحولت هذه السيادة أخيراً إلى أنواع جديدة من السلطان ، كالملكية والجمهورية والديمقراطية والديكتاتورية. ونظام المحظيات وتعدد الزوجات والحريم والإماء كلها ميراث من أنانية الرجل ، وهى تتلاشى فى البيئات التى تقرر للمرأة حريتها .

تحت سلطان هذه التقاليد وضع نظام الزواج وشرعت قوانينه ، وقد جاءت الأديان فخففت كثيراً من أنانية الرجل ، ولكن آثارها لاتزال واضحة ، والمرأة تحاول أن تتخلص منها الآن ، فيمكن القول إن الزواج كنظام يعانى دوراً من أدوار التطور ، والشقاء الذى نلمحه فى الحياة الزوجية مرجعه فى بعض الأحيان أن الرجل يريد أن يحتفظ بسلطان قديم ،

والمرأة تلمح فى الأفق بوادر حرية أو حق أو مساواة .

وقد ألقت مباحث « فرويد » فى علم النفس الضوء على بعض أسباب الشقاء الزوجى . والبحث العلمى مقدمة للتشريع أو هو طليعة التطور ، ولا بد أن يتدخل الطب فى الزواج ، بل إن حقه فى التدخل قد تقرر فى بعض القوانين .وقد انتحلت الدولة لنفسها هى الأخرى حق التدخل . وقوانين التعقيم التى صدرت فى ألمانيا النازية تدل على هذا الاتجاه .

كانت الفروسية فيما مضى والحب الشعرى فى ظلال الغاب أو الشجر يكفى للزواج ويكفى للسعادة ، كما كان يفهمها الناس وتفهمها الدولة حينئذ ، أما الآن فلا يكفى هذا ولا ذاك ، بل لا بد ، قبل الزواج ، أن نسال الطبيب وأن نسال « الدولة » أعنى القوانين التى وضعتها .



من رجموها

الليل بهيج حنون ، القمر ساحر ساهر ، الأنسام فى أرج وعطر ، الأفق يشملنا فى هناءة ، الضوء ينشر على الحقول السلام ، ظلام شجرة الصفصاف يهفو مع النسيم ذات اليمين وذات اليسار ، ينزل تارة إلى الماء ويخرج أخرى إلى التراب كأنه يلائم بين عناصر الحياة .

كان ذلك منذ سنوات حين تناقلت القرية النبأ العظيم ، « صبحة » قتلها أخوها . أثمت . أحبت . زلت .

هذا الريف العزيز الذى يوحى — كما يقول كوبر — بالفكر والفضيلة والسلام . . قد انتابته عاصفة ، هبت عليه زوبعة . استبدل بإيمانه الكفر ، وبفضيلته الرذيلة . ووجم الكل كأنما الفضيحة قد لبست الكل .

وأخذت العجائز أصل البلاء — كما يقول شكسبير — يصغن الحكايات وينسجن الأباطيل . لقد ماتت المتهمة ، إن أحداً لايسمع دفاعها ، كل الألسن تأكل فى عرضها ، كل الكلاب تلغ فى دمها .

ومرت أشهر .

أطبق الموج على الحادث ، أضحت « صبحة » من الذكريات ، كل من يمر على قبرها يتمتم باللعنات ، كل من يمر على بيتها يشيح بوجهه عنه ، كل من يمر بأخيها لايقرئه السلام .

هل كل هؤلاء أشراف أطهار ، أمن حديد بيوتهم أم من زجاج ؟

هل كانت « صبحة » مجرمة حقاً ؟ هل تستحق أن تلعن ، تستحق أن ينبت العشب على قبرها فلا تلقى من يرفعه ، لاتلقى من يضع بدله زهرة أو يسكب من أجلها دمعة .

١٧

وبعد سنوات ، وأنا أقف على قبر هذه المسكينة ، ذكرت كلمة السيد المسيح : « من كان منكم من غير خطيئة فليرجم هذه الزانية » .

وفكرت هل كل من رجموا « صبحة » كانوا مبرئين من الخطايا ؟



حضارة جاحدة

قال صاحبي : مالك تجهد نفساك وتؤودها بالتفكير فى شئون الناس؟ دعك منهم وفكر فى شئونك وحدك، ابحث عن مصلحتك الخاصة ، إنك مهما تجهد نفسك فلن تلقى من أحد شكراناً .

قلت : إنى لا أستطيع أن أرى الفقير والمحروم والجائع ولا أتأذى ، وأرى الضعيف يفتك به القوى بدون أن أعيد إلى خاطرى قول « جودوين » : « إن فى العالم من الخيرات ما يكفى الجميع ، ولذلك أعجب لماذا هذا الفقر الشنيع ؟ » ، وقول « جون ستيوارت ميل » عن هؤلاء الذين لايؤدون عملا من الأعمال ، وإنما يكتفون بأن ينفقوا ثروات طائلة لافضل لهم فيها « إنهم عيال على المجتمع ، إن العمل ينبغى أن يكون وحده أساس الثروة » .

قال : وماذا أنت صانع ؟ هذه هى الحياة منذ وجدت وستبقى هكذا إلى أن تنتهى .

قلت : هل رأيت رواية « مستر ديدز » ؟ هل رأيت كيف اتهمه الناس بالجنون لأنه رأى أن يوزع ثروته على الفقراء ؟ وكيف وقف المحامى يترافع ضده متحمساً قائلا إن مستر « ديدز » يضرب بذلك أسوأ الأمثلة ويوجه طعنة قاتلة إلى النظام القائم كله ؟

أرأيت كيف رد عليه مستر « ديدز » وقال إنك أنت ياحضرة المحامى كنت مستعداً لكى تترافع عنى ، لو قبلت أن أنقدك الأجر الذى طلبته . ولكنى رفضت فانحزت إلى خصومى ، وأنت لست فى حاجة إلى المال الذى ستأخذه منى ، ومع ذلك فلو أنى قبلت أن أعطيك إياه

لعددتنى عاقلا ، بل لجعلتنى سيد العقلاء ، أما لأنى أعطيته هؤلاء المساكين الجياع ، وآثرتهم لفقرهم عليك لغناك ، فقد أضحيت فى شريعتك مجنوناً تطلب إرسالى إلى مستشفى الأمراض العقلية !

أرأيت كيف حكم القاضى لمستر « ديلز» ولم يعده عاقلا فحسب ، بل قال إنه أعقل من وطئت قدماه أرض هذه المحكمة .

قال صاحبى : ولكن كم يوجد من أمثال مستر ديلزفى العالم ؟!

قلت : يجب أن نتحدث دائماً عن الإصلاح ، أن ندعو إليه ، وأن نحض عليه ، من العار أن يعيش الفقير على هذه الصورة البشعة وسط مدينة تتلألأ نوراً وجمالا ، إن وجوده عار وسبة كبيرتان لجيل يزعم أنه جيل الحضارة والتقدم والعلم . يجب أن نؤكد فى الأذهان — أذهان الأغنياء على الأخص — نظرية « فون ليست » فى الجماعة ، فالفرد عنده ذرة لاقيمة لها ، ينبغى أن يتنازل عن الكثير فى سبيل بقاء الجماعة واستمرار كيانها سليماً ، ولايعد كيان الأمة سليماً فى الوقت الذى لايجد فيه بعض أفرادها الكساء الكافى ، ولاالطعام الكافى ،ولا الدفء الكافى فى ليالى هذا الشتاء الطويل . إنه الإصلاح وحده ، نحن فى حاجة إليه لننقى من الحياة هذه القسوة التى تحيط بها .

سبب الطلاق

رفع نمسوي يدعى « الهر أريكش » دعوى طلب فيها الطلاق من زوجته الشابة ، لأنها تزوجت طمعاً فى ماله . وقد أصدرت المحكمة قرارها بالتفريق بين الزوجين مقررة أن التظاهر بالحب دون أن يكون موجوداً يعد سبباً صحيحاً للطلاق ، ما دام القصد من الزواج لم يكن غير الرغبة فى الحصول على المال .

وقد فكرت حين قرأت هذا الخبر : ترى لو أخذت محاكمنا بهذا المبدأ فكم من الزيجات تنتهى ، وكم من البيوت القائمة على الخداع والنفاق تهدم ، وكم من الحقائق القاسية ينبغى أن تعرف ، وكم من الزوجات اللاتى سيقرأن هذا الخبر سيشعرن أن عقود زواجهن تعد فى نظر القاضى النمسوى عقوداً باطلة ، وكم من الأزواج سيشعرون أن عقود الزواج التى تربطهم بزوجاتهم ليست إلا عقوداً باطلة ؟!

وقد فكرت أيضاً فى هؤلاء الآباء الذين يبحثون لبناتهم عن شيوخ أغنياء ، وعن هؤلاء الشبان الذين يبحثون عن عجائز غنيات ، وتساءلت : أليس هذا القاضى النمسوى على حق فى أنه عد أمثال هذه العقود باطلة ، لأنها لاتؤلف بين قلوب ، ولكن تؤلف بين جيب فارغ وجيب ملآن . ؟! أليس صاحب الجيب الفارغ معذوراً إذا استعجل الأجل لصيد الغنى السمين الذى وقع فى شباكه ، وبدت الأيام أمامه ثقيلة بطيئة وهو يملؤها نفاقاً وخداعاً ، وهو يبتسم فى حين يكون قلبه يغلى غيظاً وحنقاً ، وهو يكذب كل يوم عشرات المرات حين يؤكد مواثيق الحب والوفاء ؟

كم من الأوزار يرتكب مثل هذا الممثل المسكين ؟

٢١

أليس مبدأ القاضي النمسوي كفيلا أن ينقي الحياة من كثير من الخداع والنفاق والشقاء أيضاً ، فلا يكون زواج إلا حيث يكون حب ؟ !

أما المال فليأخذه الشيطان فإنه لايريح من يملكونه ولا من يتمنونه !

لعنه الله !



مساء فى الريف

كانت غارقة فى أحلام الشباب ومناه ، تشع عيناها بنظرات فيها صفاء السماء التى تعلوها ، ورقة الماء الذى ينساب إلى جوارها ، كانت تغنى وهى تجمع الحشائش من هنا وهناك ، وتحدج بنظراتها هذا الفتى الذى يعزق إلى جوارها فى حقله الصغير ، وكانت تحوم حوله لايرتد بصرها عنه ، كأنما الحشائش لاتنبت إلا عند قدميه .

قصة آدم وحواء، الثمرة المحرمة، روميو وجوليت كما صورهما شكسبير ، كيوبيد يرمى سهمه ، نظرات الفتنة والشباب التى تحملها أصوات الموسيقى فى المراقص المفعمة بالدخان ، هى بعينها النظرات التى كانت « أم الخير » تحدج بها « عبد النبى » وهو يضرب بفأسه نبات النجيل .

وخيل إلى أنهما أسعد بهذه اللفتات من كل ما منحت الحضارة بنيها. كانت نظرات الفتاة حلوة متكسرة متعثرة فيها الخجل والحياء، فيها الصفاء والنقاء ، فيها لوعة العاطفة التى تطرق قلبها فى أمل عذب . . وكان هوفتى قويا جمع إلى نضرة الشباب سيماء الرجولة ، أشعث أغبر، شققت الفأس يديه ، ولفحت الشمس وجهه .

ومرت صاحبته به تتثنى فى دلال وقالت : « العواف يا عبد النبى » .

— عوافى عليك يا أم الخير .

ورمى الفتى فأسه والعرق يتصبب من جبينه ، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، والهواء يسرى فى الجو مضرى الأمل . والصفصافة الوارفة الظلال إلى جوارهما تهتز ذات اليمين وذات اليسار ، يختلط حفيف أوراقها مع همسات النسيم .

لاح لى كأن الريف العزيز يبارك هذه اللمحات من هناءة الشباب .

وشعرت بشيء من الحرج أن أمر بعبد النبي وأم الخير ، فانثنيت إلى طريق أخرى واختفيت بين دوحة من الأشجار ، على حين كان شبح الشابين يبعد ويتضاءل بين الظلال .

وحينما أخذت القطار إلى القاهرة ، وجلست قبالة تلك الفتاة الأنيقة المصفوفة الشعر المزججة الحاجبين ، وإلى جوارها هذا الشاب المتأنق المتعطر ، ذكرت أم الخير والحشائش التى كانت تجمعها وعبد النبى وضربات فأسه .

ورن فى أذنى حينئذ صوت الفتاة المفعم بالحياء : العواف يا عبد النبي ولاح لى أنه أحلى نغماً !



متاعب الأزواج

قام بعض المعاهد الأمريكية باستفتاء واسع النطاق بين الأزواج الأمريكيين حول الحياة الزوجية ومتاعبهم فيها ، وكان من الأسئلة التى وجهها إلى كل منهم السؤال التالى : هل لزوجتك عادات سيئة ؟

وقد أجاب ٤٥ زوجاً فقط بالنفى ، فى حين أثبت الباقون ، وهم ألوف ، كثيراً من الشكاوى .

فشكا عشرون من عادة الغطيط فى النوم عند زوجاتهم .

وشكا آخرون من عادة قضم الأنامل فى حالة الغضب والهياج .

وقال زوج إنه لايطيق زوجته لأنها لاتفتأ تتحسس شعرها لتطمئن إلى أنه منظم .

وقال كثيرون إن زوجاتهم يشغلنهم دائماً بالتوافه من الأمور ، فالبيت عندهم عمل آخر يضاف إلى مشاق الحياة .

وشكا زوج من ذاكرة زوجته القوية ، فهى قلما تنسى شيئاً ، وهى تعيد إليه مسائل قديمة عفى عليها الزمن ، ولن تخرب الدنيا إذا ظلت فى طى النسيان ، بل لعل فى تذكرها إيقاظاً لأحزان ماتت .

وشكا آخر لأن زوجته تدفع الباب بكلتا يديها ، وقال إنه يفضل أن ينهض ليغلق الباب وراءها ويريح أذنيه من صوته المزعج .

هذا فى أمريكا . . .

أما هنا فلو خطر لأحد الباحثين أن يسأل ألوف الأزواج المصريين الذين يملأون المقاهى والمراقص والصالات لماذا يهجرون بيوتهم وزوجاتهم ؟ وأن يسأل ألوف الزوجات ماذا يحزن أفئدتهن ، وماذا يشقيهن فى حياة الزواج وهى الحياة التى تتطلع إليها كل عذراء وتنشدها على أنها حياة الأحلام والصفاء ؟ فأى أجوبة يمكن أن يتلقى من هؤلاء وهؤلاء .

حزن عذراء

لم تكن تشارك هذا الجمع الصاخب فى عبثه ولهوه ، كانت منزوية تقرأ « موباسان » وعلى وجهها مسحة تشبه أن تكون مقدسة ، وكأنها نور السماء .

وقادتنى صاحبتى إليها وقالت : إنها مسكينة ، فقدت منذ ثلاث سنوات خطيبها الشاب ، ولكنها ما تزال فى أساها وحزنها عليه كأنها دفنته أمس القريب ، مرض بصدره ، وكان قد حصل على بكالوريوس الهندسة ، وأعد نفسه للسفر إلى أوربا فى بعثة ، ولكن المرض لم يرحم شبابه ، ولم يرحم دموعها .

ونهضت الفتاة تحيينا وقالت : ألا أستطيع أن أنساه؟إنى أموت ،أحترق .

قلت : إن النسيان المطلق عبث ، اقرئى « واشنجطون إرفنج » اقرئى قوله : « حين ينقلب الحزن الصاخب مع مرور الأيام إلى دموع الذكرى الهادئة الوادعة ، حين يتحول البكاء والنحيب إلى التفكير العميق السعيد فى أيام الصفاء التى عفى عليها الزمن . من يرضى أن يقتلع هذه الذكريات من قلبه ؟ من ؟ » . لقد دفنت مثلك عزيزاً ، لا ، بل أكثر من عزيز ، أترينى أحب أن أنساهم ؟ كلا ، إنى لأعيش بذكرياتهم ولذكرياتهم ، وإنى لأرتد إلى الماضى راجعاً ، أتحسس فى ثناياه أشباحهم وإنه لتمر علىّ لحظات أكاد أشعر فيها كأنهم بعثوا إلى الحياة ، وكأنى أتحدث إليهم لا بالروح فحسب ، ولكن بالجسد أيضاً ، فحين يهدأ الحزن ويتحول إلى مثل هذه الذكريات نستطيع أن نحيا سعداء .

وحينئذ طافت بوجهها سحابة قاتمة وتمتمت : سعداء ؟ كلا .

كلا . لقد كنت أعبده ، ومات . . . مات .

وأشاحت بوجهها عنا وبكت . ثم عادت إلى « موباسان » تقرؤه .

وفكرت وأنا أنصرف عنها : ترى؟ أتظل هذه العذراء على حزنها ودموعها أم تستطيع الأيام أن تأسوا جراحها ؟ من يدرى ؟

ولكن الذى أدريه تماماً أن الحياة أقوى من الموت !



الظلال الباقية

فى الحياة لحظات ، تنسى فيها الحياة . . .

مرت بى بعض هذه اللحظات أمس . . . ارتفعت عن الحقد والغضب ، عن اليأس والأمل ، عن كل الصغائر التى تعبث بنا فتجعلنا عبيداً لها .

عشت لذكرياتى وهناءتى . . .

وكان النهار يتولى فى بطء ، والمساء ينشر ظلاله فى خفوت وحنان ، ولاح لى أن حجاباً يفصلنى عن الحياة ويرفعنى إلى ما هو أسمى ، وراح الخاطر يهنأ ويسعد ، وراحت النفس تنضو أحزانها ، وخيل لى أنى أجنى ثمار الألم الذى عانيت والهناءة التى وهبت . أحسست الماضى كأنه أشباح تتحرك وتتكلم وكأننى أندمج فيها ، فأصبح منها وتصبح منى ، وكأنى أهتف معها بدعاء الحياة والسلام .

أى نعمة تلك التى شملتنى فى هذه اللحظات ؟ أى يد أرحم وأرفق منها ؟ ! لقد خيل لى أنها تلفنى بين ذراعيها وأنى أرتد فى أحضانها طفلا لا يعرف من الحياة إلا الأفراح والأحلام .

مباركة هذه الظلال السعيدة الباقية من الماضى ، هذه الأنوار الخافتة التى تظل فى أفق بعيد مثار الذكرى والحنين ، نلجأ إليها فى لحظات اليأس والحقد والغضب فتشملنا بالهناءة والغفران ، وتمنح أرواحنا العزاء والسلام .

وعد بين طفل وأبيه

وفى هذا العيد يحل وعد بين طفل وأبيه ، فالطفل يستنجز أباه ما وعد ، والأب يراوغ ابنه ويحيله على عيد جديد ، والابن ينمو ويكبر وتنفتح عيناه على دنيا فيها أمهات ، ويسأل أباه : أين أمى ؟ فيزعم الأب أنها على سفر ، وأنها ستعود . ويصدق الطفل ويسأل : متى يكون العيد الجديد ؟ فيقول الأب عدّ شهراً ، شهرين ، ثلاثة أشهر ، ويرفع إليه الطفل عينين فيهما البراءة والصفاء ويقول : « بس تكون دى آخر مرة » ! ولا يتمالك أبوه أن يظل جامداً أكثر من هذا ، فيأخذه بين ذراعيه ويدفن رأسه فى صدره ويسأل : ما الذى يؤلمه ؟ أفى الدنيا ما يسوؤه أليس عنده كل ما يريد : وابوره ، بندقيته ، صوره ، هداياه ، أحلامه ؟ فيقول الطفل : « ولكن ماما . . » ويصمت قليلا كأنه يفكر ثم يتابع كلامه : « أنا عارف إن هى مش جايه » !

ويرتاع الأب ويخيل إليه أن قد تسرب إلى ذهن الطفل شىء ، وأن الظلام الذى أحاطه به قد أخذ ينجلى رويداً ، فيأخذه من يده ويخفى وجهه عنه لأنه يريد أن يخفى دموعاً تنحدر من عينيه ، ويقول للطفل : ألا تريد أن تذهب إلى السينما ؟ هيا يا بنى . . . انظر إلى ما فى السماء : قمر ، نجوم .

وتروح عينا الطفل تائهتين فى صفحة هذا الوجود الجميل ويسأل : القمر بيبات فين يا بابا ؟

وقد يحاول هذا الأب أن يعوض طفله عما فقد ، ولكن أنى له أن يفعل وهو يغضب أحياناً ويقسو أحياناً . وهل يستطيع أن يكون له حنان أم ، وهو ما لا يودعه الله إلا صدر أم ؟

فليكن الله إذن لهذا الطفل ، ولكل الأطفال مثله ، وليجعل أحلامهم لشدو الملائكة ، ولترف على عيونهم أنوار السلام والرحمة كلما ذكروا لهم أمهات ، وأن هؤلاء الأمهات يثوين اليوم فى القبور .



هل الفرد حر فى صرف ماله

أعرف شخصاً مرتبه لايكاد يكفيه هو وعائلته . ذهب معهم لمشاهدة أحد الأفلام فدفع كل فرد منهم ١٦ قرشاً أجر الكرسى . وأعرف آخر يقتّر على نفسه فى شراء الضروريات لكى يراهن فى السباق فيخسر كل أسبوع بضعة قروش . هنا خطر لى هذا السؤال : هل الفرد حر فى أن يصرف ما له كما يشاء ؟ أم أن الحكومة ، وهى المسئولة عن حياة الأفراد وطرق معيشتهم ، عليها أن تتدخل فى ذلك ، كما تدخلت من قبل فى تعليم الشعب عن طريق التعليم الإلزامى ، فتنظم للفرد طريقة التصرف فى دخله بشكل يحقق له السعادة والاستقرار ، فإذا كان لها ذلك فبأى شكل يكون تدخلها ؟!

(ر — ا)

* * *

أمثال هؤلاء من يسهر طول الليل فى البارات والحانات ، ويترك بيته بغير خبز وبغير إدام . أو من ينفق على ملاذه وشهواته عشرين ويعطى أولاده لطعامهم وتعليمهم وكسوتهم خمسة أو أقل من خمسة . أو من يشترى كرافات بخمسين قرشاً ومرتبه كله ٣٥٠ قرشاً . أو من يسكن فى شقة بعشرة جنيهات ومرتبه لايزيد على عشرين . والأمثلة التى من هذا النوع كثيرة ، وأنت تلتقى بها فى كل مكان ، فى كل بيئة ، فى كل جماعة .

هل من حق الحكومة أن تتدخل فتجبر كل واحد أن يمد رجليه على قدر لحافه ؟ هل من حقها أن تجبر الفرد على أن يضع القرش فى مكانه الصحيح ويصرف القرش فى وجهه الصحيح ؟

منذ أيام أن شكت بعض الزوجات أزواجهن إلى «البوليس » وطلبن إليه أن يمنعهم من السهر ولعب القمار . ولست أحسب « البوليس » مستطيعاً أن يفعل شيئاً . ليس فى سلطته أن يجبر زوجاً على عدم السهر ، ولا أن يجبر رجلا على الابتعاد عن القمار . . . كل ما له طبقاً للوائح والقوانين أن يمنع المحال العامة من مجاوزة المواعيد المحددة للسهر ، وأن يضبط أدوات القمار ويقدم أصحابها للمحاكمة . . ولكنى ما أحسب رجلا راغباً فى السهر ، أعياه أن يجد مكاناً للسهر ، أو راغباً فى القمار أعياه أن يجد مكاناً للقمار ، إن لم يكن فى المحال العامة فنى الأندية الخاصة ، وإن لم يكن فى الأندية الخاصة فنى بيوت الأصدقاء والصديقات . . .

إن النظرية التى سادت خلال القرن التاسع عشر حول وظائف الحكومة لا تزال مرعية فى كثير من الدول حتى الآن ، وهى قائمة على فكرة احترام الحرية الشخصية . فالفرد حر فى حياته الخاصة، حر فى كسبه، حر فى زواجه وطلاقه ، حر فى لهوه وعبثه ، حر فى نوع العمل الذى يزاوله . وحريته فى هذا كله لاحد لها إلا عدم الاعتداء على حرية الآخرين، وإلا التقيد بطائفة من القوانين واللوائح قصد بها إلى التنظيم ، ورد الجشع ومجانبة الإسراف ، أكثر منها إلى الرغبة فى أن يحسن الفرد التصرف فى ماله ووقته وجهده وصحته . فهو قادر مثلا أن يشرب الخمر حتى يموت إذا أراد ، ما دام لايسرق هذه الخمر ولا يعتدى على أحد . وهو قادر أن ينفق ماله كله على رفيقة أو صديقة فى حين يهمل طعامه وشرابه ، بل يهمل صحته وأولاده فى بعض الأحيان . وهو قادر أن يشترى سيارة وأن يجرى بها على هواه ، ويترك ابنه المحتاج إلى العلاج أو زوجه المحتاجة إلى فستان . والدولة لاتتدخل إلا إذا داس أحداً بهذه السيارة أو انحرف فى السير بها من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين بحسب

الأحوال . وهو حر أن يتزوج بمن يشاء طبقاً لشريعته أو قانون أحواله الشخصية ، وهو حر أن يطلق زوجته فى حدود هذه الشريعة أو هذا القانون . .

وأساس هذه الحرية ، كما قدمت ، هو حق الفرد فى أن يعيش حياته الخاصة كما يشاء ، فليس للدولة أن تتدخل فى شئونه إلا بقدر ما يكفل بقاء النظام الاجتماعى سليماً، ويكفل دوامه فى مأمن من الانهيار فى الداخل أو الغزو من الخارج . وقد اضطرت الحكومات فى السنوات الأخيرة إلى إصدار كثير من القوانين التى تعد تدخلاً فى الحرية الشخصية والحياة الخاصة للأفراد ، وكان المقصود بها صيانة نظام الأسرة أو التشجيع على الزواج أو مكافحة الفساد أو حماية الأحداث من شرور الرذيلة إلخ . . . ويمكن أن نجد فى مصر قوانين كثيرة من هذا النوع . ومع ذلك فإن أحداً منها لم يفكر فى إجبار زوج على ألا يشهد فلماً سينمائيًّا ، أو أن يشترى بنقوده فستاناً لزوجته أو بذلة لابنه .

إن القوانين لا يمكن أن تنظم كل شىء . ولا ينبغى أن نطلب منها تنظيم كل شىء . . لأن الحياة مملوءة بالشرور . وكل شر ينطوى على جزائه . وللإنسان عقل يفكر به . وهذا العقل خير من القوانين واللوائح ، هو الذى يقوده إلى الخير ، ويبعد به عن الشر . ومن أجل ذلك كان على الدولة أن تعلم كل أبنائها ، أعنى كان عليها أن تساعدهم على تقويم هذا العقل ، ثم تتركهم بعد ذلك أحراراً فى حياتهم حرية لا حد لها إلا هذا العقل ، ولا رقيب عليها إلا هذا العقل . .



خضوع ! (ص ٣٨)

القلب وأوراق الشجر

فى مطلع هذا الربيع ، والأوراق توشك أن تزهر ، والأزهار توشك أن تبسم ، لابد أن نذكر الأزهار التى ذوت . والأوراق التى تناثرت ، والآمال التى كانت غضة كالصبح الباسم ، ثم أضحت أشد سواداً من الليل الداكن .

وا أسفاه ! هل يمكن أن يغير القلب ، كالشجر ، أوراقه ؟ أترى يمسح عنه الندى وترف عليه الأنسام ، أم يظل العمر يقتات بالذكرى ويحرق البخور للماضى ؟ ! . . أتراه يسرى فى الحياة كالنجم الضال ، لاهدى ولاهداية ، أم يلفه الربيع فى أعطافه فينشر عليه ظلاله ويرفع أعلامه ؟

حسدت الشجر أمس ، حسدت الزهر ، حسدت الطير ؛ لاح لى أنى غريب بينها . كانت على شفاهها جميعاً بسمة ، وفى وجوهها نور . شملها الشتاء بالكآبة ، جعلها تنكمش وتذوى ، ولكنها لم تفقد الحياة ولم تفقد الأمل . ظلت فى ليالى الشتاء تعيش به . ظل نوراً يحجب عنها الظلام ،وهدى يرحمها من الضلال . لم يخمد قط فى صدرها . احتملت به العواصف إلى أن طلع عليها الربيع ، فنشرت له جناحيها ، ومدت ذراعيها ، وملأتُ بأنسامه رئتيها . .

هذا موكبه يجىء . . يالفرحة السماء ! . . إنه ينشر الدفء على الكائنات ، تزهر فيه القلوب والنفوس والصدور . ها هى ذى أعلامه ترفرف ، ونواقيسه تدق ، فتملأ الفضاء أحلاماً ومنى .

مادمنا فى الحياة فلابد أن يكون فيها أمل. وما دام فيها أمل فلا بد أن يكون فيها ربيع .

تبارك الله العلى . من منا يرى الورق الجاف يزهر والزهر القاتم يضحك، والشجر العارى يكتسى ، ثم يجحد فضل الله أو يحسب داءه لا دواء له ، وجرحه لا برء منه ، ويأسه لا أمل فيه ؟ !

كلا . . كلا . . إن الربيع الذى يجىء بالمعجزة فى الشجر الذى مات ، والزهر الذى جف ، قادر أن يجىء بمثلها فى القلوب التى انكسرت والأفئدة التى انجرحت !



يتيم

قالوا أمس إن هذا الطفل مات . . . ولم أكن أراه كثيراً . . ربما مرة فى كل سنة أو كل سنتين . ولم أكن حينما أراه أطيق النظر إلى وجهه . . كان الإنعام فى عينيه يملؤنى رعباً ، بمقدار ما كان فيهما من انكسار . . ماتت أمه غداة مولده . . وحينما لمحت جبينه لأول مرة، أدركت أى حياة تنتظره ، ولبثت سبع سنوات كاملة أتجنب النظر إليه . كانت تشملنى رعشة ، وتطوف بوجهى سحابة ، وتطفر من عينى دموع . . . كان الطفل يبدو أبداً ساكناً كأنه يفكر . حائراً كأنه يبحث عن شيء، فى عينيه تلك اللمحات الهادئة التى كلها عتب وصفاء ، ورحمة وعذاب . ولم يكن يتكلم كثيراً . كان كأنه يحلم ، يعيش مع الملائكة . . .

وحينما سمعت أمس أنه مات ، قلت : ارتفع إلى السماء . ستمسح على صدره يد أمه المنتظرة فى الملكوت من أجله . تركته على الأرض وفى عينيها ألم مر ، وهاهى ذى تستقبله فى السماء وفى عينيها فرحة الخلود ! . .

وكان الليل هادئاً ، والسماء صافية ، والنسيم يلعب بأوراق الشجر . ولم يكن معى أحد ، فظللت أنظر إلى السماء وتخيلت أى نعمة ، فى بعض الأحيان، أن يموت اليتيم . إنه يترك الأرض التى ليس فيها غير الظلام ، إلى السماء التى فيها كل النور . . فيها أمه ، تنتظره !

وقلت فى نفسى ويل لمن ينهر يتيماً . ويل لمن لا يؤويه ولا يرحمه ولايمسح دموعه . لينظر مثل هذا الإنسان إلى السماء لحظة . ولينظر إليها فى هدوء الليل وبسمة الفجر ، وليغمض عينيه وليفكر ، كيف تعيش الأمومة على الأرض وفى السماء ! . . نعمة تحرس الناس من الشقاء ، تبسم على الأرض مع الزهر ، وتلمع فى السماء مع الفجر ، تعطى الضال

نعمة الهدى . وتمسح على صدر الحزين بالسلوان ، فإذا حرم منها إنسان . . يالله ! فإذا حرم منها طفل ، شدا مع الملائك فى علاهم ، وطابت روحه فى مثواهم ، وظل على الأرض ، كما فى السماء ،شعاعاً من الله .



خضوع

فى رواية قصيرة اسمها « الموقعة » لكلود فارير أذيعت بالراديو ، سمعت هذه الجملة التى جرت على لسان بطل الرواية — وهو يابانى يتحدث عن النساء اليابانيات — « نحن اليابانيين نشرف نساءنا ونحتقر مزاياهن » !

وسمعت هذه الجملة أيضاً ، قالتها زوجة اليابانى تخاطبه : « اذكر يا مولاى أن هذه أول مرة يقبل فيها رجل من بيتنا أن يناقش امرأة » .

ومرت بخاطرى عشرات الصور والحوادث التى عرفتها أو سمعت عنها ، وصوت هذه اليابانية الواصل إلينا من أرض الشمس المشرقة يرن فى أذنى وهى تقول لزوجها : « أنا يامولاى لم أتعلم إلا الخضوع ، ولكنك أنت الذى علمتنى أن أناقش » !

وذكرت أيضاً مثلا هندياً يقول : « المرأة الشريفة شريفة بنفسها ، لا تضربها حتى بزهرة » .

وسألت نفسى : أيسعد المرأة الخضوع أم يسعدها التحرر ؟ وتأملت فى الحرية يصاحبها الشقاء أحياناً ، وفى الخضوع تصاحبه السعادة أحياناً . . . وعجبت أن تكون الحرية سبباً فى الشقاء وأن تكون الذلة سبباً فى المناعة !

حقاً إن السعادة ليست هى سعادة الخضوع ، أو سعادة التحرر ، ليست هى فى أن تكون المرأة خاضعة أو متمردة . ولكن فى أن تكون إنساناً يخلص فيخضع ، ويحب فيكره أن يتمرد .

وقد لاحظت دائماً أن المرأة السعيدة هى المرأة المطيعة . وأن الرجل السعيد هو الذى لايقسو ولا يأمر . ولكن يومئ ويتلطف ، فيجد لإيماءته مثل سحر الأمر ، ويروح تلطفه كأنه وحى من السماء !

تعويض

أمس رأيت هذا الفلم . ليس فيه شيء غير عادى إنه يصور حياة مدرس التقى بامرأة ، أحبها وأحبته ، فتزوجها . وفى اليوم الذى أشرق فيه نجم طفلها ، انطفأت حياتها وحياة هذا النجم . كانت الصدمة قاسية على الرجل . زرع الزمن فى طريقه الشوك . أخذ كل المصابيح وحطمها . أطفأ فى نفسه سراج الأمل والحب . ولكن الرجل عرف كيف يجعل الشوك ورداً . كيف يعود إلى هذه المصابيح فيشعلها واحداً واحداً . لم ينس المرأة التى عاشت وماتت له . ولم ينس الطفل الذى ما كاد يرى نور الحياة حتى ودع الحياة . ولكنه أحب تلاميذه . أحبهم حتى العبادة . ظل يرعاهم فى فصولهم إلى أن يتخرجوا ، ويرعاهم فى الحياة بعد أن يتخرجوا . .

قال لهم مرة : « اذكروا أننى قد أخطئ فى أسمائكم بعد أن أكبر وأشيخ ، ولكننى لن أخطئ وجوهكم . سأظل أعرفكم كما أعرف أولادى » .

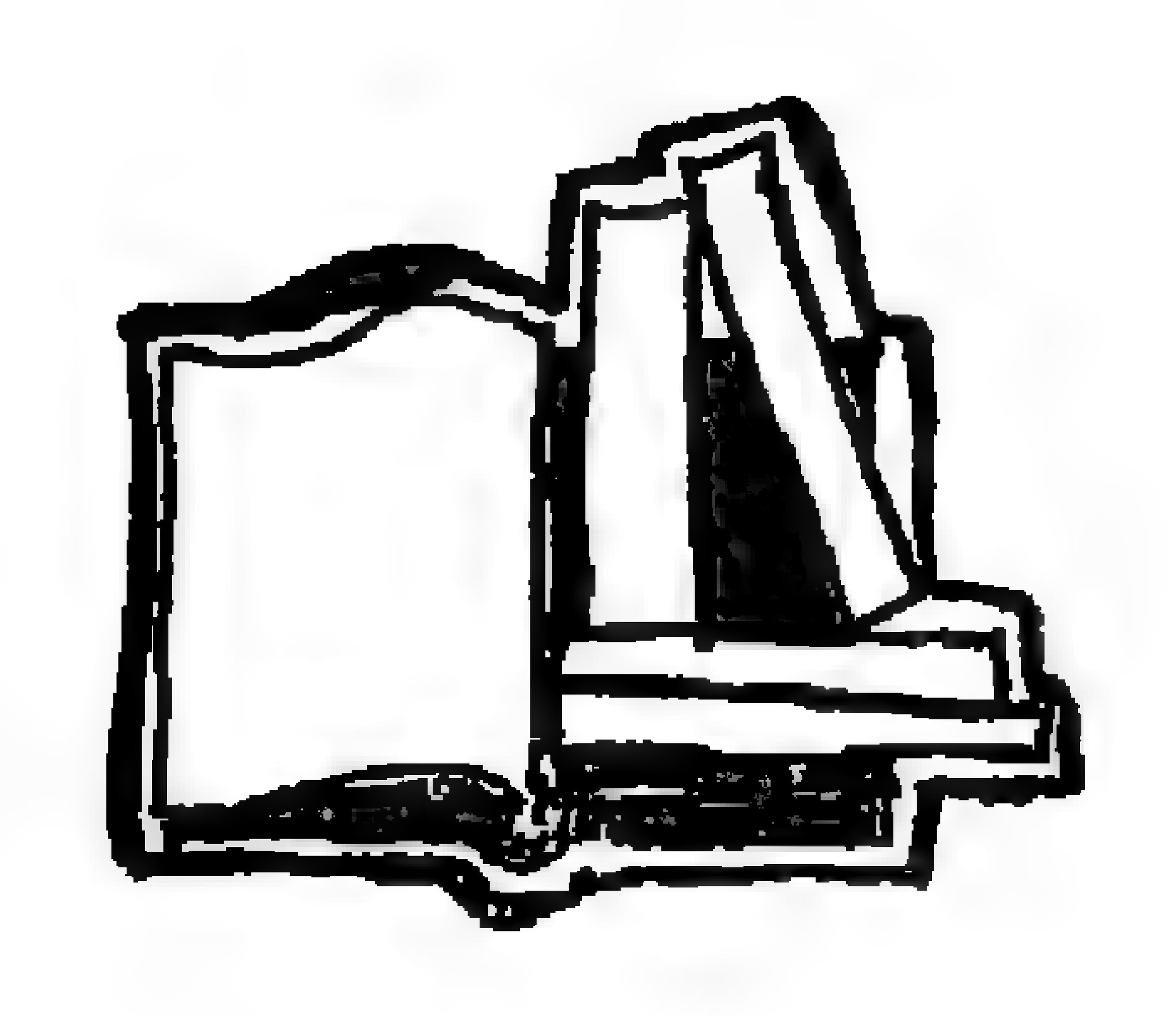
وأخذت سنوات العمر تتقدم بالرجل . مر بالشباب إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة . ثم اعتزل العمل فى المدرسة . وفى الحفلة التى أقيمت لتكريمه قال لتلاميذه : إننى لن أنساكم . سأقيم فى البيت المجاور للمدرسة . زورونى دائماً » .

وقد ظلوا يزورونه . وظل يرعاهم كما لو كان ما يزال أستاذهم . واشتعلت نار الحرب العالمية الماضية . فكان الرجل يقرأ سجل الشرف . يسارع إليه فى لهفه ليرى مصير أولاده . فيعرف مَن مِن تلاميذه مات

فى الميدان ، ومن منهم حلت صدره الأوسمة والشارات . ظل يحب المدرسة كما لو كانت بيته . وظل يحب تلاميذه كما لو كانوا أولاده . ظل وفيًّا لهم وفاءه للبيت الذى فقد ، وللمرأة التى دفن ، وللطفل الذى احتسب .

وأصابه المرض ، مرض الشيخوخة . آذنت حياته بالمغيب . ووقف الطبيب إلى سريره يفحصه ، وأخذ بعض الناس يتحدثون إليه . قالوا : « إن هذا المدرس تعس ، قضى حياته لازوج له ولاولد » . وكانوا يحسبونه نائماً لا يسمعهم . فإذا به يحرك شفتيه فى عتب وألم ، ويقول لهم : كلا . . كلا . لم أكن بغير أولاد . إن لى ألف ولد . أجيالا كثيرة !

وأغمض الرجل عينيه وقضى .



غفران

إنها فى مفترق الطرق . أما هو فيسكب أمامها دموعه كل يوم ، يسألها أن تسامحه . ولكنها تقفل مخدعها فى وجهه ، تطرده ، لاتطيق النظر إليه . وهو يقول لها : « إن كانت خطيئتى غير قابلة للغفران ، فاغفرى من أجل أولادك وأولادى » . وهى تسأل ماذا تصنع ؟ هل تغفر إثمه ؟ أتستأنف الحياة مع رجل خائن ، أم تثور لكرامتها وتحطم قلبها ؟ وأنا أقول لها اغفرى وسامحى ياسيدتى . انشرى نور فؤادك الطاهر على رجس فؤاده الآثم . ارفعيه من الأرض التى انحدر إليها إلى السماء التى تحلقين فيها . اقبلى توبته وندمه . يكفى أنه يبكى . يكفى أنه يجثو أمامك .. إنها تجربة قاسية تمر به . مثل هذا الرجل الذى يندم ويبكى ويفكر فيك وفى أولادك فيه خير كثير . إن خطيئته عارض من العوارض . أما قلبه ففيه جوهر من الجواهر . لاتكسريه . أنقذى القليل الباقى منه يسلم لك كله ، يعد لك أصفى مما فقدته . أما كرامتك ياسيدتى . . كرامتك ماذا يجرحها ؟ أيجرحها أنك تغفرين ؟ أيجرحها أن قلبك الطاهر يمسح إثم الآثمين .

إنك إذا انفصلت عن زوجك فأى شقاء ستنشرينه . . ستزرعين الشوك فى طريقه وطريقك وطريق أولادكما . فإذا غفرت ، فستبقى الشقوة لك وحدك . وهذه الشقوة قد يمسح الزمن عليها بيد النسيان . ولكنك إذا جحدت وأنكرت وفضلت أن تنفصلى عنه ، فإنك ستفتحين أمامه بيدك باب الإثم إلى آخره . أما أولادك فوا أسفاه . . سيرثون الفضيحة حينما يكبرون . ستظلل حياتهم سحابة كثيبة من العار والذل والتشريد . . ثم أنت . . أنت بعد أن تعودى إلى بيت أبيك ، ستجدين من حولك

الوحدة ، ومن أمامك الوحدة ، وبين جنبيك قلب كسير . أتحسبين أنك ستنتفعين بالحياة بعد اليوم ؟ كلا.. ضحي بنفسك، ضحي بكبريائك، ضحي بهذه الغيرة المجنونة . انشري رحمتك على آثام الآخرين .

قالوا إن حواء أخطأت إذ أغوت آدم فطردهما الله من الجنة . فاحفظي أنت ياسيدتي جنتك . ظلي في فردوسك . ظلي فيه على شدوك بالإخلاص والوفاء . . . و . . . الغفران .



يوم مطير

جادت دموع السماء أمس بعد أن ظلت أياماً لا تبكى . . . من يستطيع أن يعيش عمره فى فرح دائم ، لا تغيم فى سمائه سحابة من الحزن .. من ؟ لا أحد ! هذا ناموس الكون . . هو للإنسان كما هو للحيوان والنبات والأرض والسماء . . ومع ذلك فما كان أجمل السماء أمس وهى تبكى ! كانت كمن يغسل الذنوب ويقدم الكفارة عن الآثام .. كانت كمن يبكى من أجل البشر ، تسأل الله أن يرحم ويعفو .

كانت شوارع القاهرة ندية بالمطر ، وسطوح العربات والسيارات لامعة تحت هذا الغيث المنهمر . . وكل واحد يهرول يريد أن يبلغ مأربه قبل أن يشتد المطر ، أتراه فعل ؟ السباق من أجل الحياة هو فى الصحو كما فى الغيم . أترى الناس يهدءون ؟ أتراهم يسلمون السلاح ويقولون هنا آخر المطاف ؟ كلا . . . لايزالون فى سعى تلهب ظهورهم سياط الشهوات والرغبات والآمال والأحقاد . . لايزالون فى هذا السعى ، لاتخمد السن نشاطهم ، ولا يحول الإخفاق دونهم ودون النهوض من جديد .

رأيت فيمن رأيت أمس رجلا كاد يوفى على السبعين . ماذا يهم عمره؟! إنه حىّ ولا بد أن يعيش . رأيته يجرّ قدميه جرًّا والسماء تفتح أفواهاً كالقرب ، والرجل ثابت لايضطرب . . نظر حوله فألفى الشباب يهرولون ، وفى لحظات كان كل منهم قد آوى إلى سكن يعصمه . . أما هو فكان الوهن يثقل رجليه ، والنفس التى كسرها الدهر كأنما تقول له : لم يعد لك فى الدنيا مكان ، وكأنه يقول لها : كلا . . . بل سأعيش!

وسكت المطر قليلا . . . ثم كفت السماء عن البكاء ، لعل مآقيها جفت ، أو لعل حزنها قد مسحت عليه يد الأساة ، أو لعلها صدعت بما تؤمر . أخذت الخلائق تدب من جديد ، والحياة تعود رويداً رويداً ، ولكن الشمس لا تزال فى خدرها المصون . أتراها تطل على رعاياها ؟ أترى حجابها من الغيم والسحب يفتحون أبواب عرشها البهيج ؟

كلا ، آثرت الشمس أمس أن تخلو إلى نفسها فى قدس السر الأعظم، آثرت أن تحتجب عن الناس نورها ليزدادوا لها محبة وإعزازاً . أتراها تطالعهم مع هذا الصباح ، أم تؤثر أن تظل حيث كانت أمس ؟ .. سينظر كل منا وهو فى فراشه الوثير أو الخشن من وراء ستائر نافذته حتى إذا وجد أسلاكاً رفيعة من الذهب تطالعه مع نور الصبح ، فتح عينيه نحو المشرق ، فإذا لم يجد هذه الرسل آذن بيوم مطير أو مكفهر ، وعرف أن الملكة آثرت أن تحتجب عن رعاياها يوماً آخر !



العودة إلى الدار

ذهبت أتأمل هذا الرجل . . وكان ذلك مساء العيد . كان يسير مطأطئ الرأس يمسح دموعه بمنديل . . وأمامه على بضع خطوات نعش صغير ووراءه بضعة أشخاص رقاق الحال . لم تكن الجنازة تنبئ عن ثروة ولا عن جاه . ولاح أن كل السائرين فيها هم أهل الميت ولا أحد غيرهم . . . ما حاجتهم إلى الباكين كذباً والمنافقين تزلفاً . . . وليس فيهم صاحب جاه يرتجى ولا صاحب ثروة يلتمس عنده الجزاء ؟!

أثر فى منظر الفقر أكثر مما يؤثر منظر الثروة المزجاة . لمحت هنا الحزن الصحيح والدمع ينبع من القلب ، ويسقط كأنه يستلب الحياة فى أثر العزيز الراحل ... وكان الرجل الذى أشرت إليه أكثر الباكين حزناً وأشد المحزونين تفجعاً . من يدرى لعله أب الميت فقده غصناً رطيباً كان يدخره لشيخوخة مقبلة وعظم واهن ورأس مشتعل شيباً ؟ من يدرى ، لعله ابنه الوحيد ، أدركته العلة وقصرت يد الفقر أن تدركه بالطب الناجع . . . أى أسى يخترم قلب هذا الرجل وهو يرى كبده ينتزع منه انتزاعاً ولا يستطيع لقضاء الله دفعاً ؟ ! . . أى الخواطر السود تملأ رأسه وأى الأحزان تضغط على صدره .

كان يلوح كأنه يشفق على النعش العزيز من رجة اليد وهزة الأرجل . كان ينظر إليه فى انكسار ولهفة وحنان . أى عيد هذا الذى يستقبله وقد خلت الدار من الشادى الصادح والأمل المبتسم فى زهر العمر .

تصورت الرجل وقد عاد بعد دفن ابنه إلى داره . . تصورته ينظر إلى فراش الراحل وكرسيه وزجاجات الدواء الفارغة . . . تصورته يسير هنا

وهناك يسأل الجماد لعله يتكلم ، ويناجى ابنه لعله يجيب . . . والناس من حوله فى فرح بالعيد ، يرى الصبيان والفتيان فى مثل سن ابنه وقد خرجوا فى زينتهم ، والبسمات على وجوههم ، والنور فى قلوبهم وحنان الأم والأب يحيط بهم أينما ساروا . . . تصورته ينظر إليهم وفى قلبه حسرة . . . ما أشقاه لو لم يعصمه الإيمان من الكفر ؟

أجل . . . ما أكثر ما نحار فى الدنيا ونقف مبهوتين أمام الفواجع والنكبات ، ولا نجد ملجأ إلا أن نركن إلى الله ، نسأله فى الفاجعة الصبر وفى النكبة العزاء ! منذ شهر أو أكثر قليلا ذهبت أعزى رجلا كريماً فقد ابنته وكانت عروساً ما كادت تنزع ثياب العرس وتفرغ إلى زوجها الحبيب شهراً أو بعض شهر حتى عدا عليها الموت . بماذا كنت مستطيعاً أن أعزى الرجل ؟ بدا لى كل كلام ، مهما يكن ، أقل من مستوى المصيبة ، فلم أستطع إلا أن أسأله الإيمان والتسليم .

هناك لحظات فى الحياة لاينفع فيها العلم ولا العقل ولا الحكمة . هناك لحظات تنهار فيها قوة الأقوياء وفلسفة الفلاسفة وحكمة الحكماء وصبر الصابرين . فى مثل هذه اللحظات لا يكون العزاء فى شىء آخر غير الله ، غير أن نفنى فيه محبة ورهبة وحكمة وأملا !

حياة بلا أخطاء

ترى لو خيِّر هذا الذى أوشك أن يختم صفحة حياته أن يعود ليبدأها من جديد أيرضى ، أيتمنى ، أم يهز رأسه ويقول دعونى إلى المصير المجهول ؟

جال هذا بخاطرى وأنا أشهد أمس رجلا طحنت عظامه الأيام ، بلغ الثمانين أو التسعين ، من يدرى ؟ ! كانت عيناه تبرقان بفيض من المنى المكبوتة والآلام التى رانت عليها السنوات ، فأضحت بعض الذكريات التى لا تثير الدمع ، وقد لاتثير حتى الزفرات . إن الأيام تطوى كل شىء ، ترقأ الدمع وتطامن الحزن ، وتمسح عن الصدر كل النكبات ، وما من شىء يتضاءل مع الأيام مثل الحزن والألم والمصيبة الفادحة .

بدا الرجل أمامى محارباً أسلم سلاحه . لا ريب أنه قضى حياته كلها كفاحاً . قرأت قصته فى أخاديد وجهه ونظرته الصارمة التى أخذت تلين مع وهن عظامه واشتعال رأسه شيباً . لوردت إليه قوته ماذا يصنع ؟ أتراه يعفّ عن ارتكاب أغلاطه ؟ أتراه يتعلم من الدروس التى مرت به ؟ أتكون حياته المقبلة خيراً من حياته الذاهبة ؟ إذا كان قد أدمن الخمر والميسر وأخطأ فى حق نفسه فأرهقها بالشهوات ، وناء جسمه عن حمله الثقيل أفتراه يتصرف فى شبابه إذا عاد إليه بالحكمة التى تملأ رأسه الآن ؟ أم سيعود إليه مع الشباب جنون الشباب ؟ وهل يطاق الشباب مع حكمة الشيوخ ؟ أليس للنزوات سحر شبيه بضوء الحكمة ونور العقل الرصين ؟ أليست بعض ما وجد فى الحياة لتكون درساً وفنا وهوى وأملا وألما ؟

بل أترى الحياة تطاق من غير أغلاط ؟ أتراها تكون حلوة المذاق إذا

خلت من الألم والندم ولم تبللها دموع الحسرات ؟ ليتنى أسأله وليته يجيب ! وقفت لحظة أتأمله . كم من الأغلاط ارتكب هذا الرجل فى حياته الطويلة ، وأية حسرات تنتابه الآن ؟!

تصورت أيامه الباقية وهو يقضيها مسائلا نفسه لو لم أفعل هذا لاسترحت ، لو لم أتزوج هذه المرأة التى نغصت حياتى وتزوجت تلك التى طردتها لقضيت العمر فى سعادة وصفاء ! آه . . . لو لم أقامر فى البورصة ما فقدت مالى ؟ لو انحرفت عن الطب إلى الهندسة لكنت اليوم شخصاً آخر . . . آه . . بل لو درست القانون ما ذا كان يحول بينى وبين أن أبلغ رياسة الحكومة أو مقعد الوزارة كما كان حظ فلان وفلان ؟

تمنيت أن أحادثه وأسائله . . . ولكنى لم أشأ أن أكون فضوليًّا . . . فاكتفيت بأن أقرأ أفكاره . وعدت أسائل نفسى : لورد هذا الرجل شابًّا وتصرف فى حياته بالحكمة التى يلوح أنها تومض فى بريق عينيه أفتحلو الحياة له لو عصمته التجربة من الأغلاط ، فسار فى الحياة على خط مستقيم لايخطئ ، ومن ثم لايلقى جزاء الخطأ . لا يسىء التدبير ، ومن ثم لا يلقى الإخفاق لو سارت حياته من نجاح إلى نجاح أفتراه يسعد بها ؟

مر هذا كله على خاطرى وألفيتنى أجيب نفسى : كلا ، سيضيق بالحياة والشباب ولن يحس للنجاح لذة ، فإنما سرّ الحياة فى هذا التناقض العجيب . سرها فى الإخفاق والنجاح ، سرها فى الخطر والنجاة ، سرها فى النزوة الطارئة والحكمة الدافعة ، سرها فى الخطأ حتى نتبين الصواب ، سرها فى الموت حتى نعرف الحياة .

الحظ والعمل

عدت من الريف أمس ، ما أحلى أن يسكن الإنسان بعد جهد شاق إلى الهدوء ! إنه يشعر براحة يستحقها . إن الكسلان لامجال له فى هذا العصر ، فالأمم تتسابق ، والأفراد لاينى بينهم الكفاح ، والدنيا لا ترحم ، واللقمة تجىء مبللة بالعرق ، وما من أحد يرتفع إلى القمة إلا كان العمل والجهد والجد فى السفح يرفع مجده ويزيد سناه .

وما أصدق قول لورد بيفربروك : « إن الحظ لعبة الكسالى ، إنه خرافة من الخرافات » ! وما أحوجنا فى مصر أن نؤمن بالعمل ونرفض خرافة الحظ ! انظر إلى هؤلاء الكسالى والواقفين فى آخر الصف . لاحديث لهم إلا التهوين من نجاح الناجحين . استمعت إلى واحد منهم . مر بكل الأسماء اللامعة فى مصر : هذا بلغ منصبه لأنه قريب محظوظ ، وذاك جمع ثروته لأنه أتقن فن المآدب ومرن على السهرات وعقد بين ضرب الكئوس الصفقات ! كل منهم له قصة ، فلم يسلم من لسانه ! ما أشبهه وأمثاله بعجائز الفرح ليس لهم فى الموكب السائر الزاخر إلا الغمز والتهامس .

وما أكثر ما تنعقد فى مصر الحلقات ! وما أكثر ما يوقفك صديقك فى الطريق أو يدعوك إلى النادى أو البيت ، فإذا الحديث بينكما لا يخرج عن الحظ ودوره الخطير فى الحياة ! قلما تؤمن أو يؤمن صديقك أن أحداً من الناس فى مصر بلغ ما بلغ لأنه مجد مثابر مستقيم . . . كلا إن الحظ فتح له ذراعيه وحمله على جناحيه السحريين فإذا هو فى أعلى مكان !

إن الحظ فى الشرق معقود له اللواء ، ولكنهم فى الغرب لايعرفون

إلا العمل . نحن نؤمن بالحظ والقدر والنصيب ، وهم يؤمنون بالعرق المتصبب والعقل المحكم التدبير والنظام الذى لا يفهم المجاملة ولكن يفهم الحق والواجب. ومن أجل ذلك كنا حيث نحن ، وكانوا حيث هم .

إن أوربا طحنتها الحرب . وخرجت منها مثخنة بالجراح . ولكن العمل المتواصل شفاها من جراحها . فعادت إلى مكانتها الأولى فى السباق . . لم تتأخر إلا ريثما تنهض . هذه آية العصر وإنجيله : ليس من سبيل إلى التفوق إلا بالعمل !



هذا الإنسان

حقًّا ما أتفه الإنسان ! وما أشد تجبره ! إن رواية حياته من أعجب الروايات التى لم تتم بعد فصولها ! ينشر فى الدنيا الذعر والقلق لا ليخضع الجو لسلطانه ويجعل منه مطية ذلولا لأسفاره ، ولكن ليلقى القنابل على الآمنين ، ويأتى عملا هو الغدر والجبن والقسوة جميعاً .

اكتشف القُوَى الذرية لا ليفيد منها متاعاً وراحة وأمناً ، ولكن ليدمر أعداءه . وينشر فى الأرض الخراب والدمار . . . إن ميزانيات الشعوب لاتعنى براحتها وطمأنينتها بمقدار ما تعنى برصد الأموال لصنع المدافع والطائرات ، ولماذا ؟ لكى تغير إحداها على الأخرى . وهكذا تعطى الشعوب عرق جبينها لكى يتحول سوط عذاب يلهب ظهورها ، وروح قلق تشيع بين بنيها . ينامون خائفين ، ويصحون مذعورين ، لا لشىء إلا لأن قوة العلم أضحت فى أيد مجنونة ، يأكلها الحقد والطمع فتنسى كل شىء إلا أن يكون لها السلطان . تستعبد الشعوب التى منحها الله الحرية ، وتسلب الأحياء ما منحهم الله من حياة .

ما أعجب هذا الإنسان المتحضر ! تلقاه فى المجتمعات رقيقاً أنيقاً ، إذا مس ثوب فتاة اعتذر فى رقة وخجل . وإذا صدرت منه كلمة نابية انحنى آسفاً يطلب الصفح . يذوب رحمة وإشفاقاً على اليتامى والأرامل وأبناء السبيل ، يجود عليهم بما معه وأكثر مما معه . ينشئ المستشفيات للمرضى من بنى الإنسان ، لا ، بل ينشئ المستشفيات للرفق بالحيوان ، يداوى المجروح منه ويعنى بالعليل . . .

هذا الإنسان نفسه يمارس القتل فى الحروب كأنه حرفة ، ويفخر بالنصر ، ويزهو بالمعركة التى تخضبت أكثر من غيرها بالدماء . يبحث

وراء المغامرات ويجرى فى التيه ويملأ السموات والأرضين رعباً وفزعاً ، فإذا سألته أو سألت قواده وساسته ماذا يبغون بما يصنعون ؟ قالوا : السلام والرخاء والديمقراطية ناشرة ظلالها وأمانها !

ونحار فى الغرض والوسيلة ونعجب كيف يطلب السلام بالحرب ، وكيف يكون الرخاء فى وسط البؤس والفزع . إن كل إنسان فى العالم يعيش اليوم وفى ظهره حربة مشرعة لايكاد يأمن يوماً حتى يأتيه الفزع فى المساء وأنت مع ذلك لا تسمع من أركان الدنيا إلا أنشودة السلام والحرية والخير والمحبة .

* * *

لمحت هذه الفتاة تواسى جريحاً ، كانت ملاكاً من نور وإيمان . وكان الجريح بين يديها أشبه بطفل . وراح الخاطر إلى المعركة التى أثخنت هذا المسكين بالجراح، وتصورت الفزع والهول يشمل المتحاربين وكل منهم يطلب دم أخيه : وحوش كاسرة لا ترتوى إلا بالدماء ! وسألت نفسى : أيهما هو الإنسان ؟ أذلك الوحش طالب الدماء أم هذا المثخن بالجراح يطلب الرحمة من ملاك فى صورة إنسان ؟

فى ظلال الريف

ما زرت الريف مرة إلا أحببت أن أبقى فيه أبداً . إن سحره ليشملنى ، وإن جماله ليروعنى ، وإنى لأهيم بلياليه حباً : لياليه المظلمة القاتمة ، ولياليه المنيرة الباسمة ، غدرانه التى تنساب فى سكون وبطء كأنها تجرى بقدر مقدور .

نساؤه الشريفات النبيلات المجاهدات خير عندى من هؤلاء المتأنقات المتجملات الكاذبات المخادعات اللاتى تبدو وجوههن فى الصباح غيرها فى المساء ، وفى البيت غيرها فى الشارع .

ورجاله المتشققة أيديهم ، الملوثة ثيابهم ، المسمرة بلفح الشمس ولفح العمل خير عندى من هؤلاء الشبان الذين يكوون شعورهم ويزججون حواجبهم ويقضون الساعات أمام المرآة ثم ينطلقون إلى الشوارع يتثنون كالنساء : هؤلاء الكسالى فاقدو الهمة ، عار الرجولة وعار الوطن .

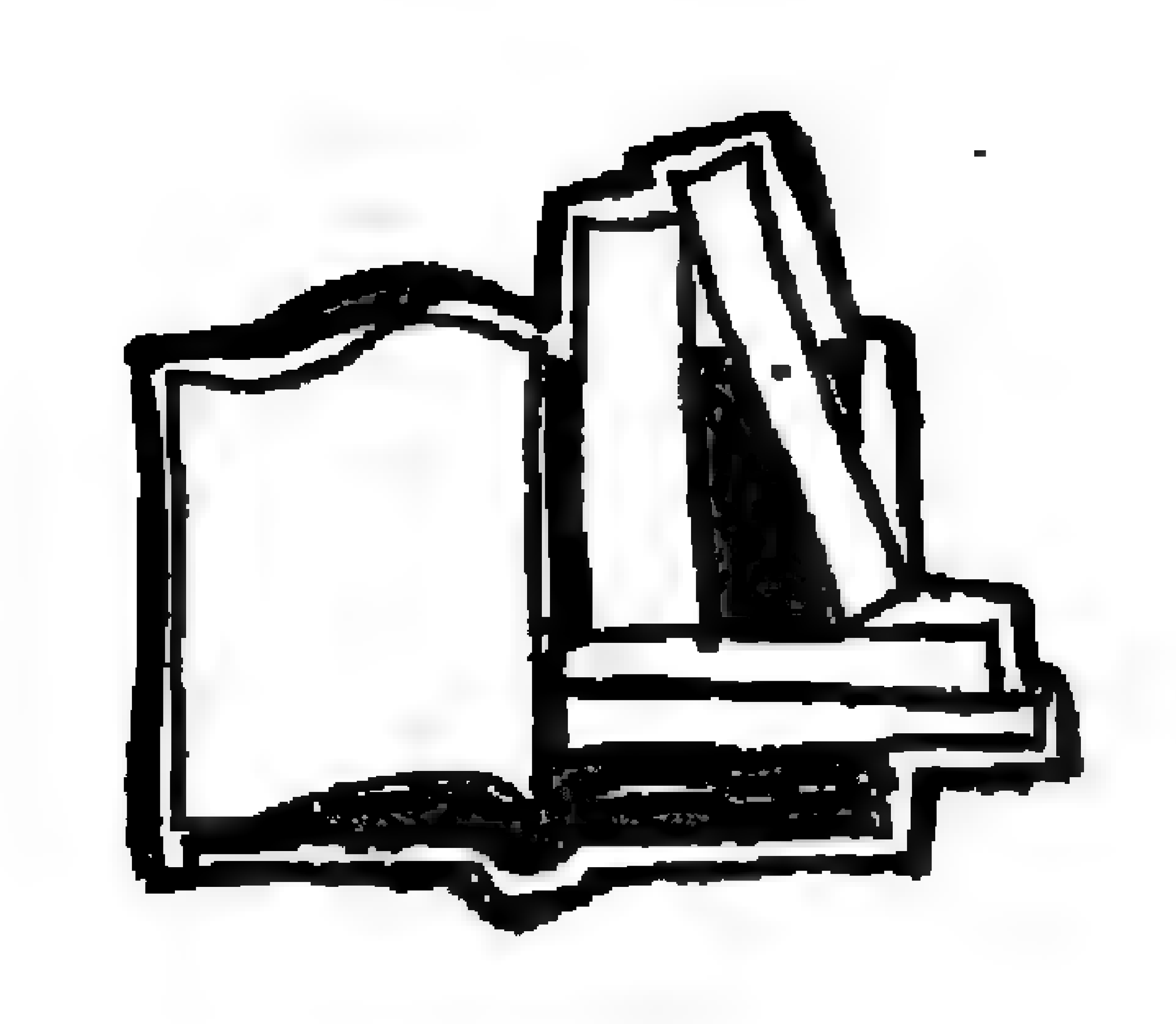
فى الريف أقضى أحلى ساعات العمر ، أشهى أيامه ولياليه ، فيه العشيرة والأهل والصحاب والذكريات ، فيه الذين أحبهم ويحبوننى ، وأذكرهم ويذكروننى .

يا لنخيله وأشجاره وسنابل قمحه وشجيرات قطنه ! يا لأفراحه وليالى هناءته ! يا لأعياده ومباهجه ! يالسكونه الذى يهزأ بضجة الناس ! وقناعته التى تهزأ بجشعهم ، وإيمانه الذى يهزأ بجحودهم ، وفقره الذى يهزأ بغناهم !

ولقد ملأ شكسبير آفاق الدنيا نوراً وذكراً ، وطوف اسمه آفاق الأرض . وملأ وهادها وبطاحها ومدائنها وقراها سناً ومجداً ، وكان جديراً

أن يدفن مع الخالدين فى كنيسة « وستمنستر » فى قلب لندن حيث العظمة والفخامة والروعة ، ولكنه آثر على هذا كله ركناً منعزلا فى « سترتفورد أون آفون » فى قريته المتواضعة ، حيث قضى طفولة العمر ، حيث عاش وكافح حتى انتصر .

مبارك هذا الريف ألف مرة ، ومباركة رياضه وغدرانه ونجومه وأزهاره ألف ألف مرة !



قيود من ذهب

كان هذا الكاتب حرًّا من كل قيد ، لم تكن له صداقات يرعاها ، ولا مصالح يخشى عليها الأذى . كان من هذا النوع المثالى الذى نذر قلمه للحق أو ما يعتقده حقًّا . كان رزقه يأتيه ضيقاً ولكن سمحاً ، قليلا ولكن فيه هذا المتاع الذى لايخالطه مَنٌّ ولا حسد ولا طمع . وكان مع ذلك يحظى فى الناس بسمعة طيبة عوضت عليه قلة المال . لم يكن يرهب الكبراء ولا ذوى السلطان ، لأنه كان قد شمل نفسه فى هذا المنطق العادل الزاهد .

سارت حياته هكذا حيناً من الدهر . كان يجد وقتاً للقراءة والتأمل . لم تكن الحياة المادية قد أخذته فى دوامتها . كانت له لحظات تأمل وتدبر وتفكير جعلت فيه هذه الصوفية التى ترتفع بقلمه إلى أعلى السموات . وحسب أنه سيعيش هكذا أبد الدهر . حسب أنه سيظل محرراً من قيود الحياة منطلقاً فى آفاق الفكر والرأى ، يقول ما يحلو له ويدعو إلى ما يشاء ، ينقد من يريد وما يريد ، فلم يكن لأحد عليه يد ، ولم يصنع مجده إنسان .

ولم يكن يفكر فى أن يغير شيئاً من هذه المثل التى ارتضاها . كانت أشبه ما تكون فى دمه ، فقد نشأ فى جو مطلق من القيود . انفتحت عينه أول ماانفتحت على فضاء لاحدله ، زرقة شاملة فى السماء ، وشجر متماوج منطلق ، وأعشاب وأعناب ونخيل . حدا الرعاة وجاوب أغانى البرية . ثم تعلم : قرأ وقرأ وأعانته على القراءة بصيرة نافذة وعين صائبة وقلب واع . حاز من الإجازات الدراسية أعلاها ، وأخذ الحظ والمجد والأفق كله يتبسم له .

حسب الكاتب المفكر أنه سيظل أبد الدهر عبداً لشيء واحد هو فكره وقلبه . ولكن اسمه اللامع جذب إليه صداقات الكبراء والعظماء وأصحاب النفوذ . لم يسع إليهم ولكن سعوا إليه . استهواهم بقوته ، عف عنهم فتهاووا عليه كالفراش . لم يدفعهم عنه بل أخذ هو يقابل صداقتهم بمثلها وسعيهم بمثله. وتسرب إليه شيئاً فشيئاً بعض الزهو بهذه الصداقات، ولم يكن يعرف أنه بدا يضع قيداً من ذهب فى رجله ؛ وكان القيد رقيقاً فى أول الأمر حتى إنه لم يحسه . ولكن القيد أخذ يشتد ويثقل مع كثرة هذه الصداقات والمجاملات إلى أن أضحى ثقيلا بغيضاً .

كان الكاتب فى أول أمره يجد المجال أمامه فسيحاً حينما يريد أن يكتب . لم يكن فى أفقه ما يخشاه أو ما يرجوه . لم يكن إلا قلبه وعقله ولسانه . وهو الآن يعود إلى قلمه يسأله أن يكتب ، وإلى قلبه يسأله أن يوحى ، وإلى عقله يسأله أن يفكر ، فيهوله أن قلمه بدأ يجف ، وقلبه بدأ يميل ، وعقله بدأ يتوقف .

رأى قيود الصداقات والمجاملات والمصالح منثورة من حوله هنا وهناك . احتار الكاتب المفكر فى أمره ، وسأل نفسه : ماذا دهاه حتى خرج من صومعته إلى الدنيا ؟ وذكر قول سير فيليب سدنى : « انظر فى قلبك واكتب » . وأخذ المسكين ينظر فى قلبه ، ولكنه لم يجد غير ضباب من بقايا الحرية الذاهبة . نظر الكاتب فيما حوله فألفى المال يأتيه من كل صوب رزقاً واسعاً . وسأل نفسه ألم يكن خيراً منه الرزق المحدود والحرية المطلقة ؟ وأعاد قول سير فيليب سدنى : « انظر فى قلبك واكتب» ، وطفرت من عينه دمعة لأن القيود التى فى رجليه من ذهب !

المصلح الكبير

ما حسبت أن ألقاه بعد كل هذه السنين الطوال . قذفت بنا الحياة كلاً فى مصير . درسنا معاً وجلسنا معاً منذ كنا نقرأ فى صفحات الكتاب ، كتاب العمر الذى وهبناه ، دون أن ندرى أيطول أم يقصر ، أيصاحبه التوفيق أم يكون النحس خاتمة المطاف . كان طروباً فيه ابتسامة الطفل وانبثاق الفجر . لم يكن يدرى أن العواصف ترصد أمامه الطريق . حسب الدنيا ستجرى به فى موكبها رخاء يظللها السلام بالصفاء .

رسم فى خياله الأمانى ، وحسب أنه يملى على القدر. وبدأ رحلة الحياة محمولا على أجنحة رقيقة . كان يحب بلاده أعظم مما يحب أى إنسان . كان مفعماً أملاً فى مستقبلها . وبدأ يجاهد . عرف أنها فى حاجة إلى سواعد بنيها فمنحها ساعده . تعلم وتثقف ووضع علمه وثقافته فى خدمتها . لم يسألها الجزاء ولكنه سألها أن يكون جندياً لا تستهويه الألقاب ولا الأمجاد .

ومشى الشاب فى آخر الصف مؤمناً بمثله وأخلاقه وأمله . كان صادقاً أميناً ، مجداً عارفاً بواجبه . علموه فى المدرسة أن هذه أخلاق النجاح . حذروه أن يكون ملتوياً ، أن يكذب أو ينافق أو يخادع . بدأ حياته موظفاً فى الحكومة .

كان يصل إلى مكتبه فى الميعاد وينصرف فى الميعاد . يسأله رئيسه عملا فيؤديه ، ويتلقى المدح والثناء . حتى إذا مضى عام وبعض عام راجع سجل عمله ، فألقاه نظيفاً . ومضى عام ثالث ورابع وخامس وسادس وأخذت عجلة الأيام تدور ، وأخذت المثل والأخلاق تضطرب

فى ذهنه . أحس أن الصدق يبعده عن رئيسه ، على حين يدنى النفاق زملاءه إليه . أحس أنه بغيض فى الجو الذى يعيش فيه . رأى أنه بعد ست سنوات لايزال كما كان ، وتقدم عليه الكاذبون والمنافقون . كان عليه أن يختار . إما أن يكذب وينافق أو يترك عمله . وآثر أن يظل أميناً لأخلاقه . لم يتزعزع إيمانه فيما تلقى فى المدرسة والجامعة ، ولكن تزعزع إيمانه فى وظائف الحكومة . فتركها ليجرب حظه فى العمل الحر

أحس بانطلاق جديد ، وشعر كأنه يلقى عن كاهله عبئاً ثقيلا . وتولاه شبه تصميم على أن يصلح هذا الفساد .

كان كل واحد يؤكد له أنه على حق ، وكان كل واحد يؤكد له أنه أخطأ لأنه ترك وظيفة الحكومة . فعجب فى نفسه من هذا التناقض ، وسأل عن تأويله فعلم أن كل إنسان يشعر بالحاجة إلى الإصلاح ولكن كل إنسان أيضاً يرى أنه من الخير أن يكف عن هذا الجهاد الشاق .

قالوا له إن مالقيته فى الحكومة ستلقاه خارج الحكومة . وأنه من الخير له أن يرضى بالأمر الواقع . وهداه تفكيره الناضج إلى خطة حسب أنها مؤدية إلى الإصلاح المنشود . قال إن الاشتغال بالسياسة أحسن ما يجدر به أن يفعله . فعن طريقها قد يبلغ مناصب الإدارة والتوجيه . ودخل الميدان . كان عالى الثقافة واضح التفكير خطيباً سلس العبارة ، ضليعاً فى كثير من الفنون والعلوم . وانضم إلى أحد الأحزاب ومعه أخلاقه ومثله وكتبه ودراساته . وبدأ يخطو إلى المجد المنشود . ورحب به الحزب أجمل ترحيب ، فاغتبط بهذه البداية ، وانبثقت فى قلبه شعلة من نور كانت قد خبت . ومرت الأيام وتلتها الأشهر وبدأ يدعو إلى مبادئه ، فأسعده أن يجد لها تأييداً ضاعف من سروره ومن أمله . فلما كانت

الترشيحات لمجلس النواب . تخطاه حزبه إلى آخرين أقل منه كفاية وعلماً وخلقاً وتحمساً .

وذكر المصلح الكبير ما كان فى وظيفته الحكومية إذ آثروا عليه فى الترقية من كانوا أقل منه علماً وخلقاً ونشاطاً . وعجب فى نفسه من هذه المصادفات السيئة . وهمس له صديق بما ألقى الضوء على كل ما لم يحط به علماً . فهم أن كل الترشيحات ترجع إلى أسباب . فهذا لأنه أمد الحزب بمال . وذاك لأنه صديق الرئيس ، وثالث لأن الدائرة كانت لأبيه ، ورابع لأن فلاناً صاحب النفوذ أوصى به خيراً . وغاظه أكثر من كل شىء أن كل إنسان اعترف بفضله وعلمه وخلقه اعترافاً أشبه بشهادات الثناء والمديح التى كان يتلقاها من رئيسه حينما كان موظفاً ، ومع ذلك يرقى غيره .



نقاب على وجه السماء

غامت السماء أمس ، أسدلت نقاباً على وجهها الصبوح . طال بها التبذل فآثرت الحجاب . وأخذت الشمس تبدو من حين إلى حين بخيوطها الذهبية الرقيقة ، كأنها حسناء تختلس النظرات .

حقاً ، ما أعجب ما تتجاوب النفس مع الكون ! أحسست النور فى نفسى يحجبه رويداً رويداً مثل الغيم الذى حجب الشمس، فضقت بالمكان المحدد وآثرت الخلاء المنطلق . أويت إلى الطبيعة الرقيقة الباكية وقد أخذ المطر يهطل — كما يقول الإنجيل — على الأبرار والفجار ، فيغسل الأرض كأنه يغسل الذنوب . وكفت الخلائق عن السعى بعض الشىء . التمس كل إنسان ملجأ يقيه . أسرع المبطئ وهرول المسرع ، وبقى مكانه من كان يعتزم الخروج .

ولاحت لى الحرب المشبوبة منذ الأزل بين الطبيعة والإنسان . يداورها وتداوره ، تقسو عليه حيناً وترحمه أحياناً ، ترسل عليه الصواعق كما تبعث إليه بنور الشمس الدافئ . تفتح الأرض جوفها حيناً فتبتلع المدائن والقرى ، وتنبت له أحياناً من كل زرع بهيج . . . تبارك الله تعالى جعل الخير والشر صنوين ، والموت والحياه ظلين يتتابعان ، فاجتمع فيهما سر الفناء والخلود !

وساءلت نفسى ما هو الفاصل بين الخير والشر ؟ بل ساءلت نفسى أيوجد فى الحياة شر محض أو خير محض ؟ المطر المنهمر للأعرابى الضارب فى الصحراء الذى يرعى الإبل والغنم شر ، لأنه يهز قوائم خيمته ، ويدخل عليه مأمنه ، وقد يطيح به فيدعه فى العراء يلتمس الملجأ ، فلا يبلغ ما يريد ، وخير لأنه قد يسقى زرعه ، وينعش نبته ، ويملأ

جوف الأرض ، فتتفجر عيوناً منها العذب الفرات ... والمطر للساكن فى المدينة شر ، لأنه يحجبه عن مجتمعاته وسهراته ونزهاته ، ويحجزه فى بيته سجيناً أو كالسجين . . . وهو للقروى الذى يزرع الأرض خير إذا كان زرعه قد جف أو عز عليه الماء ، وهو شر إذا كان زرعه ريّان لاحاجة به إلى الماء .

اختلفت بين الناس المذاهب والسبل والأغراض والغايات . فالخير فى ناحية شر فى ناحية ، وما ينفعنى قد يؤذيك ، وما يؤذيك قد ينفعنى . . ولكن الطبيعة لا تحفل بالأفراد ، إنما تحفل بالمجموع . لا تعنيها الذرات ، ولكن يعنيها البناء المتكامل . . .

مرت هذه الخواطر بنفسى وأنا أرقب قطرات المطر تشتد وتتراخى ، تنزل رذاذاً ثم تهطل مدراراً . والشمس تجاهد الغيم المتكاثف تلتمس أسباب الحياة . . . عبرة الكون جميعاً ألفيتها فى هذه القطرات ، تولد فى الغيم وتدفن فى الأرض ، وفى هذه السحب تتجمع فتضحى قوة حتى إذا ذابت ماء تبددت . . وفى هذه الشمس تزهو فى سمت الأفق حتى إذا حان الغروب أفلت وأضحت كما بدأت خيوطاً متلاشية يطويها الظلام . . الموت والحياة ظلان متتابعان !

زيارة

كان لا بد أن أذهب لكى أؤدى واجب الوفاء للعزيز الراقد فى ثرى الريف . أتراه عزيزاً واحداً ؟ كلا . ما أكثر من أودعنا هذا الثرى العزيز ! . .

كان الجو رخاء ، الأنسام تهب منعشة ندية ، والشمس قد مالت إلى المغيب أو أوشكت ، والشفق الرقيق الذى طالما سمع بثى ونجواى ، يتناثر حولها لكى يتجمع فى هالة موكبها عند الرحيل .

لم يكن فى المقبرة أحد ، كانت فى وحشتها الخالدة وصدى الأنسام البعيد يصل إليها ، كأنه يطرق باباً موصداً . . أتراهم ، هؤلاء الأعزاء ، يسمعون وقع أقدامى ؟ ولكن ما لهم لايهشون للقائى كالعهد بهم . كلا . إنهم لايسمعون . . بل من يدرى ، لعلهم يسمعون ولكن هذا الحاجز الرقيق السميك بين الأحياء والأموات يحول بينهم وبين ما يريدون !

وقفت خاشعاً أسألهم فلا يجيبون ، أتحدث فلا أسمع غير رجع الصدى . وكأن حديثى لهم ، إذا تحدثت ، يسمع ولو كان الهمس . وا أسفاه إنى لأجيل البصر فيما حولى فلا ألقى إلا صمتاً مقبضاً ، وحشائش نبتت هنا وهناك ، وتماوج الأشجار المحيطة يملأ النفس رهبة وخشوعاً . وهاهو ذا المساء ينشر ظله الرقيق والنور يزحف عليه الظلام ، كأنه الحياة يدركها الموت !

أأعود مع الليل أم أظل هنا إلى أن يأذن الله . هنا حيث أخذت صور الماضى تتتابع على خاطرى فى شريط متناسق . . لكم آثرت أن أعيش معه . كان أحلى من كل ماحفل به الحاضر . . كانت فيه الطفولة المبتسمة والأب الرحيم ، كانت فيه اليد الكريمة تأسو الجراح

وتمسح الدموع والصدر الذى آوى إليه كلما أثقلتنى الحياة . أترانا حينما نكبر لانعود فى حاجة إلى صدر نأوى إليه . . كلا ما أشد حاجتنا ، مهما نبلغ من المجد والثروة والسلطان ، إلى القلب الأول الذى نبض لمقدمنا ، والعين التى تبللت بالدمع إشفاقاً وحبًّا ، والصدر الذى اشتعل فيه الهم حيناً ، ونبض بالفخر والزهو حيناً ! .. ما أشد حاجتنا إلى الراعى الذى يسهر ونحن نيام ، والعين التى ترصد خطواتنا ، والقلب الذى يتفتح لمجدنا ويستر كل شىء حتى عارنا !

الليل يتقدم ولابد أن أعود . . إن الحاجز الرقيق السميك الذى يفصل بين الأحياء والأموات لايجعلنا حيث هم ولا يجعلهم حيث نحن . ذهبوا بمسراتهم وآلامهم ومضينا بمسراتنا وآلامنا . اجتازوا العتبة الكبرى وبقى علينا أن نسير إليها مجهدين تارة راضين تارة ، ولكن الطريق واحد .

* * *

ما أسرع ما تنتقل الحياة بالأحياء ! بعد ساعات كنت فى القاهرة حيث الزحمة والبهرج والضياء ، حيث الحياة تقتضى الأحياء عصارة العقل والقلب والجسم ، حيث اللذات تستعبد طلابها ، والمجد يستعبد طلابه ، والفكر يستعبد طلابه .

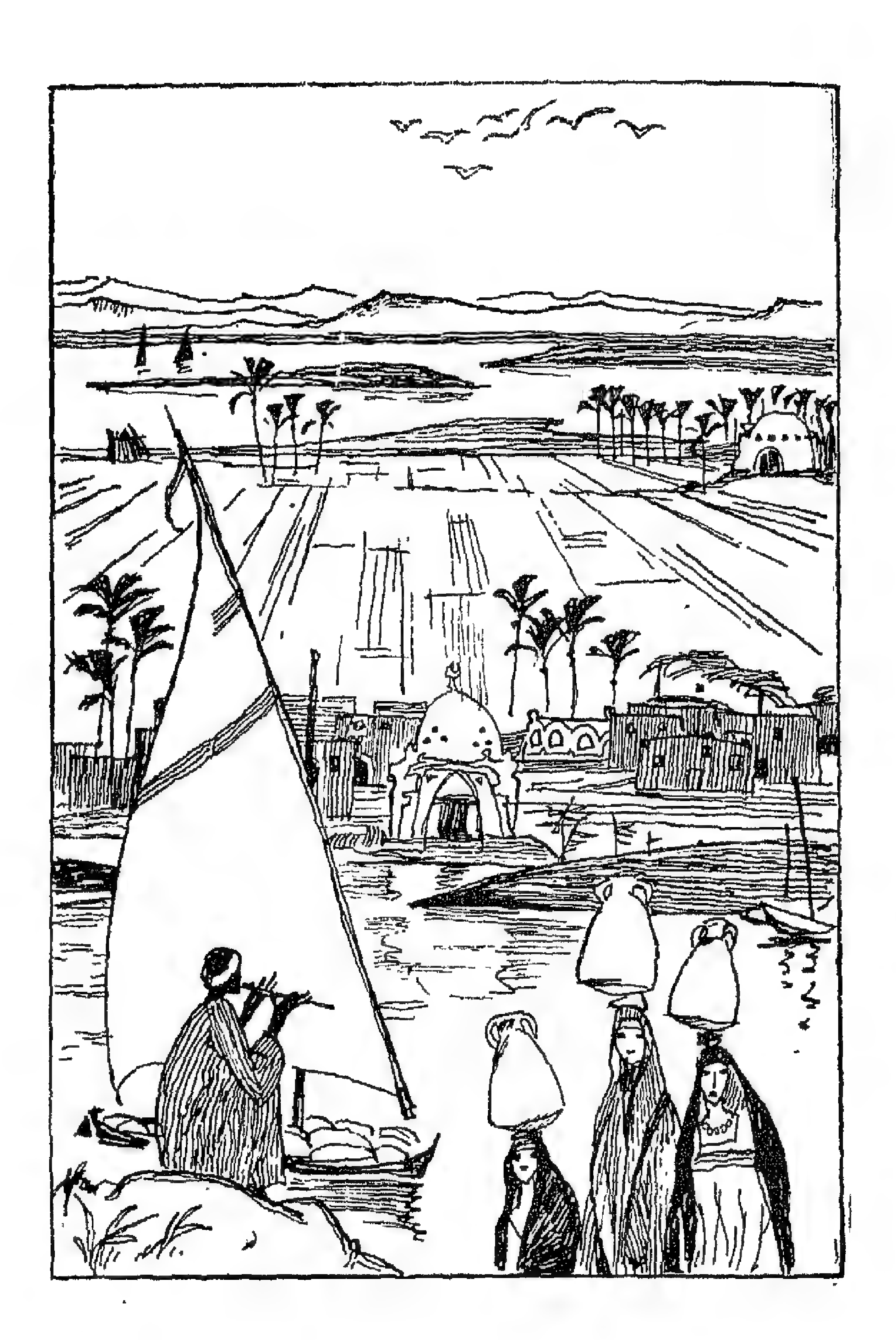
هنا الحياة بكل شرها وخيرها ومجدها وعارها ، بحربها وسلامها . وأغمضت عينى وجمعت الصورتين فى خاطرى . هناك مقبرة موحشة ، وهنا حياة صاخبة . ما أعظم ما بينهما من فارق ، ولكن ما أقرب مابينهما من نسب !

الحرية

لكم تمنيت أن أعيش حياة كلها حرية لا قيود لها ، حرية الفكر والرأى لاحرية الفوضى ! لكم تمنيت أن يعطينى الناس حريتى وأعطيهم حريتهم ، وأحترم رأيهم وأمجده . لالأنى أدين به ولا لأنه رأيى ،ولكن لأنه مظهر من الحياة المنظمة فى مجتمع منظم ، ولكن أف من الحياة ، فقد علمتنى أن أكظم الرأى والفكر . علمتنى أن أضحك بمقدار ، وأتكلم بمقدار ، وأتنفس بمقدار.

ولولا أنى أخلو إلى نفسى أتدبر أمرى وأمرها ، وأخلو إلى كتاب أقرؤه فأشعر أن الكاتب ينصرف عن الحدود والقيود ، ويعيش كيف يحلو له أن يعيش ، ويقول مايشاء أن يقول . وقد يكون لغواً وقد يكون عبثاً وقد يكون جداً ، ولكننى أشعر بالكرامة الإنسانية تنضح من تحت السطور ، تلك الكرامة التى تأبى القيود وتنفر من السلاسل ولوكانت من ذهب . لولا أنى أخلو إلى نفسى حيناً لضقت ذرعاً بهذه الحياة المملوءة كذباً ونفاقاً وزوراً .

ومن أجل ذلك أشعر بانطلاق كلما خرجت من القاهرة إلى الريف. أشعر بضوء الحرية ينبعث مع شعاع الشمس المترامية على الحقول ، أشعر بأنفاسها التى لا حدود لها كأنها بعض هذا الأفق الضارب إلى غير حد ، المنبسط إلى غير أمد . لكم أختنق فى القاهرة إذ أسمع الرأى من هذا أو ذاك فأشعر النفاق وراءه يستره والمصلحة تلقى عليه ألواناً ، فلا هو رأى ولا هو فكر ولاهو عقيدة ، ولكنه لباس يرتديه صاحبه اليوم ليخلعه غداً .



وقد سألني بعض أصحابي لماذا تدع القاهرة إلى الريف ؟ لماذا تهرب منها كلما أخلتك الشواغل ؟

إنني إذ أخرج منها أشعر أنني ارتددت إلى الكون الجميل فى أصله . وصدق كوبر « إن الله صنع الريف ، وصنع الإنسان المدينة » ! أفترونني إلا مؤثرا ما صنع الله على ما يصنع الناس؟ إننى إذ أنطلق إلى الريف أحس أننى ألقيت عن كاهلى عبئاً . ألقيت — إلى حين — هذا النوع من الناس الذى يعجزك أن تردهم إلى الطريق السوى ، وهذا النوع من الحياة الذى يحملك على أن تكتم فى نفسك ما تريد أن تفضى به ، تارة لأنك لاتستطيع ، وتارة لأن الناس وضعوا فى رجليك قيوداً من ذهب ، رقيقة ولكنها ثقيلة ، جميلة ولكنها كريهة .

فى الريف لن تجد شيئاً من ذلك . ليست فيه مصالح ولا مآرب ولاوزارات ولادواوين ولاأموال ولابهارج . . . لازينات ولاعطور ، لا فتنة تأخذ بالألباب ، ولامجتمعات تتلاقى فيها العيون الغاويات . ومن أجل ذلك كانت فيه الحرية خالدة فى النفس ، لارقيب عليها ولارقباء . ومن أجل ذلك أحببته عاصماً لى حتى لا أغوى ، وعزاء لى حتى لا أيأس .

هل أنا وحدى الضحية ؟

عرفته منافقاً من الطراز الأول ، نهاز فرص كأنه تعلم فنه وحذق أساليبه . كان موظفاً فى الحكومة فمارس فيها النفاق أكثر مما مارسه فى أى عمل آخر . كان على المسكين أن ينافق فى الصباح والمساء والغداة والآصال . . . وفى سهراته نفسها ، مهما تطل ، كان عليه أن ينافق أيضاً . أصبح النفاق فى دمه ، حتى انمحت شخصيته وخسر ما كان فى عقله من لمعة ، وما فى فكره من تصور .

رثيت له إذ رأيته . وكنت أعرفه مثقفاً حريصاً على أن يكون له رأى. أراد الرجل أن يرضى كل الناس . اشتغل بالسياسة حيناً فآذته السياسة ، وصنعت له من الأعداء أكثر مما صنعت من الأصدقاء . لمح فى مصر ناساً يصادقون كل الناس ، ويكسبون من كل الناس فأراد أن يفعل مثلهم . ماذا عليه إذن لو اشتغل بالسياسة والاقتصاد والمال والأدب وكل شىء . . وبدأ الوسيلة لحياته الجديدة. بدأ ينافق فى رأيه السياسى وينافق فى رأيه الاقتصادى وينافق فى رأيه الأدبى . وعانى المسكين ألواناً من الأذى فى الصراع بينه وبين ضميره . أراد أن يسكت شخصه القديم الذى قرأ وبحث وآمن بالمثل العليا .

ومرت به فترة من الاضطراب والتناقض أضحكت منه الناس ، ولكنه ظل مواظباً على قتل رأيه وشخصه وعقله . . وقد نجح أخيراً .شيع كل ما كان فى نفسه من فضيلة الرأى الحر ، والعقل الواعى ، والشجاعة التى لاتحول دونها المصالح. . وأخذت المكاسب تأتيه من كل صوب . . امتلأت خزانته بالمال ، وفرغ قلبه من الوعى ، ورأسه من الرأى .أصبح

شبه بوق . واليوم إذ يقف الرجل يسائل نفسه : أكسب أم خسر ، تطفر من عينيه الدموع ، يحاول أن يعود إلى شخصه القديم فلا يستطيع ، على حين أضحى ينكر من نفسه كل شيء . المال بين يديه ولكن هل كل ما فى الدنيا هو المال ؟ وإنه اليوم ليرضى أن يبيع حياته كلها لكى يعود مرة أخرى طليقاً من كل قيد ، ولكنه لايستطيع . فسد فيه كل شيء. وأسأله لماذا صنع بنفسه ما صنع ، فيقول: لم أصنع بنفسى شيئاً ، ولكن الحياة فى مصر هى التى صنعت كل شيء . أترانى كنت وحدى الضحية ؟



الفنار الصغير

قال صديقى : هذا الوحش الذى فى داخلى ، لا أعرف كيف أسوسه ، يكاد يفترسنى . إننى أضيق به . كل ما حولى يغذيه ، ولا يقف فى وجهه إلا ضميرى . . . . ولكن ماذا يفعل المسكين أمام وحش ضار؟

قلت : وتخاف عليه ، أعنى على ضميرك ؟

قال : يلوح أنه أضحى هزيلا لكثرة ما أخذت منه وكثرة ما أكل الوحش .

قلت : ألا تزال تسوّغ أمام نفسك ما ترتكب من آثام وذنوب بردها إلى مثل وأخلاق عالية ؟

قال : إنى أفعل .

قلت : لايزال ضميرك حيًّا ، عليك أن تنقذه .

وسأل : ماذا أصنع ، وكل ما حولى يحكم على الضمير بالإعدام . ما كان حلالا يوماً يصبح حراماً يوماً . ما تعلمته ووعيته وأفنيت العمر أنميه وأغذيه يكاد يذهب فى المجتمع كالضباب . انقلبت الأسماء أمام عينى . الناس يسمون النفاق لباقة ، والكذب دبلوماسية ، والوصولية مهارة ، والتقلب سياسة . وهم يسخرون منى إذا جادلتهم بما أعرف وما أقرأ فى الكتب . أأطويها ؟ أأحرقها ؟ هذا أستطيعه . ولكن ماذا أفعل فى هذه الشمعة الخافتة الباقية فى نفسى هل أطفئها هى الأخرى وأستريح ؟

قلت : كانت الشمعة من قبل مصباحاً وهاجاً .

قال : كانت !

قلت : وماذا أطفأ وهجها ، لقمة العيش ؟

قال : كلا ، أنت تعرف أنى غنى .

قلت : المرأة ؟

قال : كلا ، أنت تعرفنى من هذه الناحية أكثر مما أعرف نفسى .

قلت : لعله الوسط ؟ إن مصباح الضمير كما يكسب الزيت من النفس يكسبه من الوسط ، فأنت ضحية مسكينة . . ولست وحدك !

قال : ولكنك لم تحل المشكلة .

قلت : حلها ليس فى يدى ولا فى يدك . احتفظ بالبقية الباقية فى السراج . احفظها وذد عنها ما استطعت ، فإن ومضة الفنار الصغير تنير ظلمات المحيط .



دين الفطرة

على كثرة ما كتب عن النبي محمد لا يزال هناك الكثير مما يجب أن يكتب ، فرسالته تأخذ من كل زمن ومن كل تطور معنى جديداً أصيلا . فإذا قلت إن دعوته إنسانية عامة لم تعد الواقع ، لأنها دعوة وافقت الفطرة ولم تخالف مكنون النفس ولا اتجاهها .

وهي دعوة لاتعصب فيها ولا قطع ولا حسم ، لأنها دعوة تقوم على إطلاق العقل البشري وتقديسه . وليس في الإسلام ، كما يحسب البعض ، غيبيات ، وأحكامه كلها أحكام عقلية .. وفيما عدا العبادات ، يبدو كل حكم من أحكام الإسلام قابلا للتطور ، وقابلا لأن يسع ، كل رأى جديد . وفى المبدأ الشرعى المقرر : « الدين يسر لاعسر » تلخيص لأعظم قاعدة يمكن أن ينطلق منها الفكر البشرى إلى غير حد . وفى المبدأ الآخر : « الضرورات تبيح المحظورات » تلخيص لقاعدة أعظم ما تكون انسجاماً مع الفطرة وتمشياً مع أحكامها .. وإن انتشار الإسلام فى أكثر بقاع العالم هذا الانتشار السريع لأعظم دليل على أن دعوته أقرب بمسايرة للعقل وأعظم تفاعلا معه . وكل المآخذ التى أخذها الكتاب الغربيون على الإسلام لم تكن إلا من أغلاط الجهال من المسلمين الذين لم يفهموا دينهم كما ينبغى أن يفهم ، فحشدوا فيه الخرافات والأوهام على أنها بعض أصوله وعقائده . وليس أبعد من الإسلام عن التعصب ، فهو الذى آخى بين أبناء الأديان جميعاً ، ودعا إلى المحبة والسلام والمغفرة والموعظة الحسنة ، والجدل الذى لا إكراه فيه ، بعد أن تبين الرشد من الغى .

وقد اتهم الإسلام بأنه نشر دعوته بالسيف . وهذا اتهام لايقوم على أساس

وكم من الدول قامت على السيف وانتهت وعفى عليها الزمن ، أما الإسلام كدعوة فقد عاش بالإيمان المجرد من السيف . واليوم لايكاد الإسلام يملك من القوة المادية إلا القليل ومع ذلك تزكو دعوته ويزداد الإيمان به ويقوى الاندماج فيه على الزمن . ولئن كان الإسلام قد أوذى من أحد فإن أعظم ما أوذى به كان من بعض أتباعه الذين لم يفهموا جوهر دعوته ، فأضافوا إليه ماليس فيه ، وصوروه ديناً جامداً ، وهو فى واقع أمره أعظم ما يكون حيوية وقبولا للتطور ، وإيحاء بالمحبة والتعاون والسلام .



سحر الضلال

هذا الشيخ الذى رأيته أمس يدب على عصاه ، فى وجهه سلام وتسليم ، وفى روحه سماحة وصفاء . . . أتراه إذ اقترب من النهاية ، اقترب من الله . كيف كان فى شبابه؟ أية أوزار أثقلت ظهره؟ هل ينظر إلى الحياة اليوم بالعين التى كان ينظر بها ، وهو عود رطب ، مشدود إلى الناس بالكفاح . وإلى الدنيا بالأمل وإلى الكون بالجبروت ؟ أتراه إذ انكسر سلاحه انكسرت نفسه ؟

وا أسفاه ! ليت الشباب يعى و يعرف .. ما أحوجه أحياناً إلى فترات من الصمت ، ينصرف فيها عن كل شيء إلا عن نفسه يسائلها ويحاسبها . . فى هذه الفترات يحيا الإنسان الذى هو قبس من الله ، يختفى الحيوان الذى هو نزوة من الشيطان ، ينسى المعترك الهائل والدنيا الدائرة الغائرة الناصبة الشباك الرافعة اللواء ، ينسى الأضواء اللامعة والأهواء الغامرة والعطور التى تملأ المدينة . . . والشباب يتهاوى عليها كالفراش دون أن يسأل الذى عبّ من الكأس حتى ثمل ، ليته يسأل ؟

ولكن أتراه إذا سأل يعى ؟ كلا ، إنه سحر ، إنه سوط يلهب ، سياق . . وكل يتشهى الثمرات المحرمات . طردت حواء آدم من الجنة ، وتطرد أبناءه من الوعى إلى الغىّ ، ومن الرشد إلى الضلال . ملايين كسرت الشهوات أعوادهم ، أحسوا آخر المطاف أن الذنوب رسبت والضلال باق ...

أترى أبناءهم وحفدتهم فتح النور أعينهم على الهدى أم ظل السحر مع الضلال ، وظل الهوى مع العطر والدخان ؟ فكرت وأنا أنظر إلى هذا الشباب يعب من الكأس عشرات وعشرات أى قذى سيرسب فى كأس عمره حينما يتحطم العود النضير ؟! لكن هل يفكر هو اليوم فى غير كأسه ؟

طوق من طمع

كل يوم تتفتح أمامى أسرار نفوس . ما أعظم هذا الذى لا تستهويه شهوة ، ولا يسعى وراء مال. ما أعظم هذا الذى تعصمه نفسه من الصغار ، فلا يسقط عليه كالذباب ، ولكن يتسامى فى الجو كالنسور . .

سألنى وفى عينيه شبه دمعه : إن قبس النور الذى اشتعل فى نفسى منذ وعيت الحياة ، هذه الومضة التى تجعلنى إنساناً أوشك الخطر أن يحدق بها ، كادت الريح تطفئها . أترانى أسقط من عش النسر إلى وكر الثعلب ؟

وشعرت أنه فى ضيق ، أحسست أن أعواد قفص لا أراه تكاد تطبق عليه ، وهو الذى كنت أعرفه منطلقاً ، متشامخاً ، رأسه فى الذروة ، وأنفه فى السماء . وسألته بدورى : ما دهاك ولست أعرف جديداً فى حياتك ؟ قال : بل الجديد فى نفسى . . . إن نور الحرية التى أحببتها موشك أن يخبو . . حريتى فى أن أقول وأعمل وأرى . قلت : وماذا يمنعك أن تقول ما تشاء ، وتعمل ما تشاء ، وترى ما تشاء ؟ قال : طوق غير منظور ! قلت : من ذهب . قال: بل من طمع . قلت : وأنت الذى وضعته راضياً . قال والدمعة فى عينيه : بل راغماً . قلت : إنك تغالط ، لا تطمع إلا النفس ولا تحب الحرية إلا النفس ، فأيهما أردت لها أرادت !

ليرحم الله العالم

كان القمر بدراً يترقرق نوره الفضي على صفحة النيل ، والخضرة الفاتنة تجمع إلى شاطئيه أجمل الرؤى وأعذب الأحلام . . والأهرام تطل من بعد ، كأنها تتحدث عبر القرون . . . في صمتها أبلغ العظة وأروع الكلام .

وكانت الساعة قد أوفت على الثالثة ، ونور الفجر ينبثق في عذوبة ساحرة ، والظلمة تخلي الطريق ، وصوت المؤذن يرتفع في الفضاء الساكن يسبح لله في عرشه العالي .

لم يكن من صوت في هذا السكون إلا صوت مؤمن يناجي ربه ، أوحزين مؤرق ، أو شاعر حالم ، يرقب هذه اللحظة الفاتنة الفاصلة بين الظلام والنور ، وبين الشك واليقين ، بين الليل والنهار ، أو إنسان مكافح يبدأ عمله مع النور ، أو ينتهي مع الظلام .

سألت ربي لو كان الساسة ورجال الجيوش والحروب شعراء أفكانوا يثيرون في العالم ما يثيرون . . أتراهم لو رأوا هذا الجمال وفهموه كانوا يأمرون جيوشهم أن تهجم لكي تقتل وتدمر ، ولكي تيتم الأطفال ، وتخرب المدن ، وتفسد ما صنع الله ؟

أتراهم لو أدركوا سر الكون يجترئون عليه بمثل ما يفعلون ؟ متى يفيق العالم من جنونه ! متى تختفي هذه النغمة الثقيلة الكريهة ، نغمة الحرب ولا شيء غير الحرب ! أفيريدون أن يعودوا إلى الظلام الخانق ، وقد منحهم الله النور ؟ إلى القتل وقد منحهم الله الحياة ؟

فتن وقلاقل ومطامع متنافسة ، متعادية متقاتلة في كل مكان في العالم : في كوريا وفيتنام والصين واليابان ، في مصر والشرق وقبرص

واليونان ، فى لاوس وباكستان ، فى أوربا ، فى أمريكا . . فى كل مكان . . لاهدوء ولا أمان !

أتعصمنا الجبال من حماقة الإنسان ؟ أتعصمنا السماء نفسها ؟ أتعصمنا الأنهار والبحار ؟ . . . كلا . . . إن الوحش الآدمى قد أفسد كل شيء . بلغ شره قمم الجبال وقاع البحار ، وتطاول حتى إلى السماء منحه الله العالم نعمة وبركة فأحالها ناراً تتلظى وجحيماً لا يطاق !

من يوم خلق الله آدم ، اقتتل هابيل وقابيل . . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل فيها هابيل وقابيل !

ليرحم الله العالم !



الحمار والجزرة

ما أعجب الإنسان! يحسب أنه أذكى من الحمار، بل يحاوله أن يضرب المثل بغبائه وبلادة فهمه وحسه، مع أنه لايعدو أن يكون حماراً كبيراً وأمام عينيه جزرة!

ما هى حكاية الحمار والجزرة؟ رواها الدكتور أحمد زكى فى كتابه «ساعات السحر»، فقال إنه وجد ولداً من «أولاد البلد» يضحك على حمار بجزرة. كان الحمار حماره. وكانت الجزرة جزرته. وكان مع الولد عصاً طويلة وضعها على عنق الحمار، وضعها بطوله، ثم ربطها بعنقه، فامتدت أمام رأسه متراً.

وربط فى طرفها أمام عين الحمار جزرة، ورآها الحمار تتأرجح أمام عينيه فأسرع الخطى لينالها، ولكنها لاتقترب. كلما أسرع أسرعت وكلما أبطأ أبطأت. والمسافة بين فمه وبينها دائماً واحدة، ولكنه ظل يدأب.

سألت نفسى وأنا أقرأ هذا الفصل الممتع فى كتاب الدكتور أحمد زكى:

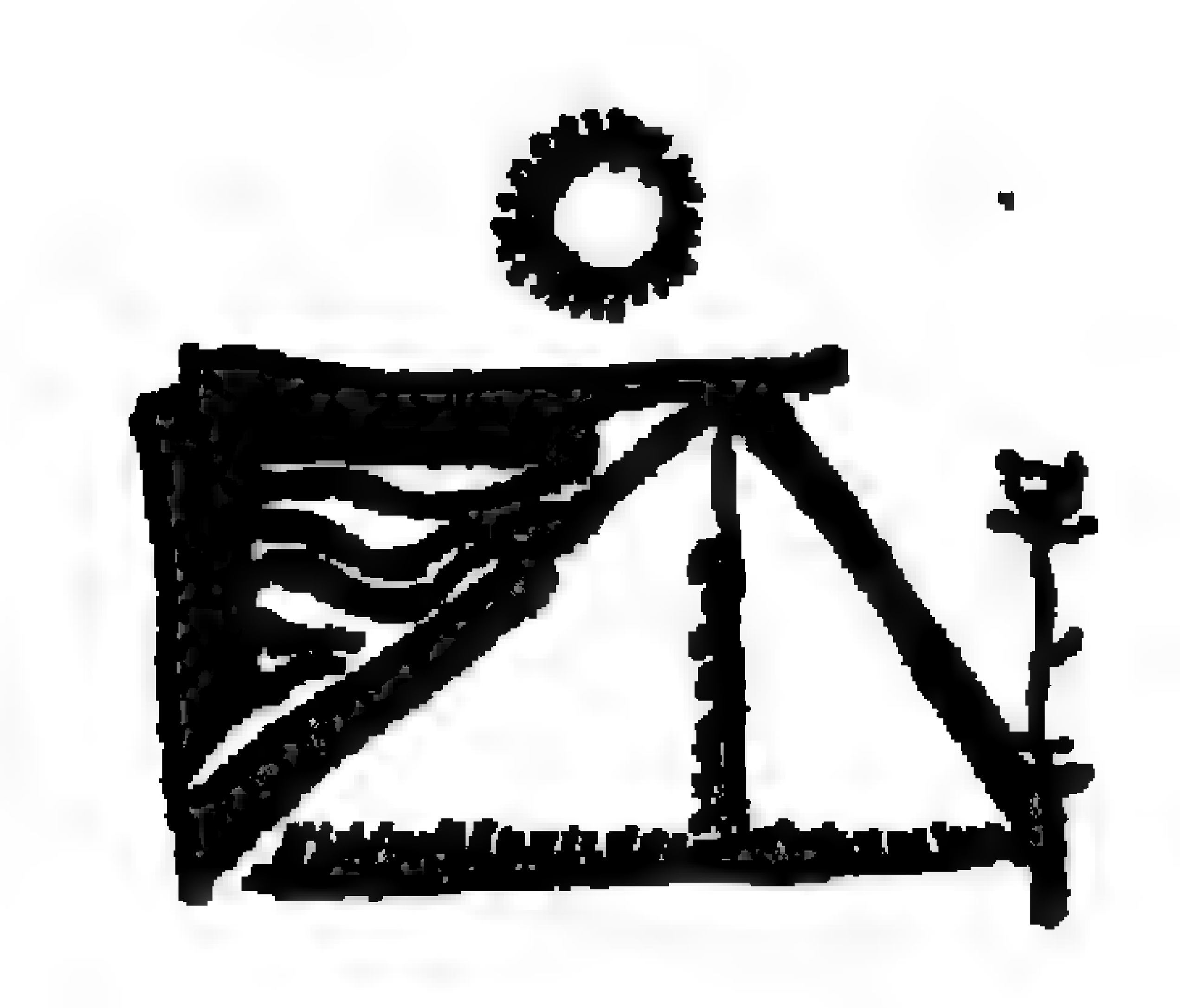
ما أعجب ما وضعت الحياة من نظم تصدق على الإنسان كما تصدق على الحمار. فلابد من هدف يتراءى ويخبو حتى نظل عبيداً له وللحياة. تشقينا، وتكد منا الجسد والعقل والفهم ثم لاتشبع ولانشبع. من منا قال، وهو فى رحلة الحياة: «إلى هنا يجب أن أستريح؟» من منا سعى إلى الثروة فنالها فقال: لم أصبح فى حاجة إلى مزيد؟ من منا تخلف عن السعى لأنه بلغ نهاية الشوط؟

ولكن هل فى الحياة شوط له نهاية؟ إننا كلما بلغنا ما نعده نهاية،

بدأ شوط جديد ، فنظل عبيداً أبداً لشهواتنا ومطامعنا وآمالنا كاذبة أم صادقة ، أمينه أم خادعة ، سعيدة أم شقية؟. إن بلغنا السعادة بحثنا عن الشقاء ، إن استراح كل منا عند نهاية الشوط ولم يبدأ شوطاً جديداً كانت نهاية الشوط نهايته ، وليس منا من يحب أن يموت .

إن آية الحياة الكبرى فى هذا البرق الخادع ، نظل نحسبه حقيقة فتمتلئ الدنيا حركة وسعياً ، إخفاقاً ونجاحاً ، دموعاً وابتساماً ، رضاً وغضباً ، حزناً وفرحاً ، أملا ويأساً .

هذه هى الدنيا لابد أن نكون فيها حميراً ، حتى تظل مملوءة بهذا الضجيج ، وإلا لو كنا أذكياء واستراح كل منا إلى ما بلغ ، فكيف تكون الحياة ؟ بل كيف تسير؟ هل تتوقف ؟ هل تنتهى ؟ كلا . ليس من سنتها أن تقف ، ولن نرضى أن نموت !



ماذا نحن !

كان المساء عذباً رقيقاً ، تهب أنسامه كأنها المنى . . . وطريق المعادى يحف به النهر والجبل والزرع ، يصل ما بينها وبين المدينة الصاخبة اللاهثة المائجة بالخلائق كأنهم فى يوم الحشر ، سباق لا ينتهى ، ولهفة لا يردها مال ولا شهوة ولا مجد . .

ترى هل وقف أحد أو تخلف لأنه بلغ ما يريد ؟! . . كلا . . . إنه يطلب المزيد . يأتيه المال فيسأل عن الشهرة ، وتأتيه الشهرة فيسأل عن الهناءة ، وتأتيه الهناءة فيسأل عن الشقاء . . . ما أعجب الإنسان ! يكون فى دفء الحنان فيخرج إلى زمهرير الشتاء . . يكون فى أمن فيسأل عن المخاوف بل يسعى إليها . هذه هى الحياة ، لابد أن تختلط فيها قطرات الدمع ببسمات الهناء ، لا بد أن يسيل نهر الشقاء جنباً إلى جنب فى أرض المودة والصفاء .

ونحن . ما أشد حيرتنا ! إذا سرنا فى الشقة الحرام بين الهناء والشقاء كانت حياتنا بغير طعم ، وأيامنا بلا أمل ، ودفؤنا بلا حنان . . فإذا أردنا أن نذوق ما فى الدنيا من هناء كأنه الخلد ، كان لا بد أن نذوق ما فيها من حرمان كأنه العلقم . قسمة عادلة ، بقدر ما تسرى فى قلوبنا أمواج الهناء ، تفرى أكبادنا مرارة الحرمان !

تباركت ربى ! . . . ما أعظم ما صنعت ! . . . فى دقائق كنت فى المعادى فى هذه البقعة الهادئة الهانئة ، والنهر العظيم الجميل يبسط صفحته الرائعة الوادعة . . . وأهرام خوفو وخفرع تبدو فى الأفق قباباً هائلة تجمع التاريخ وتطوى السنين كأن لم تتحرك الدنيا . ماذا تروى هذه الشواهد الخالدة خلود الدهر ؟ ما الزمن ؟ ما الأمل ؟ ما المجد ؟

ما المال ؟ ما الحناء ؟ ما الدنيا كلها ؟ ما هذه الأباطيل التى نسعى إليها ونفنى أيامنا فى سبيلها ، ونذرف دموعنا لوعة وراءها ؟ أعمارنا التى ذهبت ماذا تركت لنا ؟ هناءتنا التى ولت ماذا بقى منها ؟ شقاؤنا الذى شربنا كأسه ألم تطو صفحته الأيام ؟ . . . ثم ماذا نحن فى آخر المطاف ؟ . . . لعب صغيرة يتلهى بها القدر ، يملؤنا غروراً حتى إذا حسبنا المجد فى أيدينا تركنا نهوى إلى غير قرار .

سراب نتبعه لاهثين مجهدين مكدودين ، كلما بلغنا غاية واسترحنا لحظة ، ضاقت بنا الآمال ، وحملنا عصانا واستأنفنا المسير . . .

المسير . . . المسير . . . إلى أية غاية ؟ لن نبلغ شيئاً ! . . إن لغز الحياة أن تظل أبداً تغرينا لنظل أبداً عبيداً لها ، فتعمر وتقوى وتمتلئ علماً وحضارة وفناً ومتعة ولهواً . . أما نحن ! ماذا نحن ؟ . أدوات هذا كله . . وا أسفاه . أى مصير لنا ؟



الطول أم العرض ؟

أبعدد السنوات التى عشتها تقاس الحياة أم بالآمال التى حققتها؟ . . . أتقاس بالحرمان الذى فرضته الظروف عليك . أم تقاس بالانطلاق من القيود والاندفاع فى الشهوات ؟ وهل الحياة التى تمر رتيبة هادئة ليس فيها هزات أفضل،أو الحياة المماوءة بالمخاطر التى ترتفع معها وتنخفض؟.. وفى عبارة موجزة ، أمن الخير لك أن تعيش عمراً طويلا ، أيامه متكررة ، سقيمة ، هادئة لاتحمل إليك جديداً من سلام أو قلق ، أم الخير أن تعيش فى موج مصطخب ، تصارع الحوادث وتصارعك الحوادث ، تنتصر مرة فإذا أنت فى القمة ، وتخفق مرة فإذا أنت فى القاع ؟

بعض الناس يؤثر السلامة والهدوء . يقنع بعمل منتظم مضمون ، أو قل أكثر الناس يفعلون ذلك ، تستطيع أن تمر بماضيهم فى لمحة ، لأنه ليس إلا يوماً واحداً تكرر عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، لايكاد يتغير برنامجهم . يخافون البرد والحر والمرض ، ويحسون الخطر على بعد أميال فيغيرون طريقهم ويجعلونه أبعد عن الخطر بعشرات الأميال . . يمسكون ورقة ويكادون يحسبون مستقبلهم حساباً دقيقاً . لأنه سيمر حتماً على نسق ماضيهم ، بعد سنة هناك علاوة ، بعد سنتين سيتخرج ابنه ويوظف . بعد ثلاث سنوات ستتزوج ابنته شابًا ابن حلال . . سيكون معاشه عشرين أو ثلاثين أوخمسين جنيهاً مضافاً إليها إيراد قطعة أرض أوعمارة سكن ، يستطيع أن يأوى فى شيخوخته إلى هدوء أكثر ، ويقبل يده ظهراً لبطن ، ويشكر الله أن منحه العمر الطويل ، أو يرجوه أن يمنحه العمرالطويل .

وبعض الناس يؤثر حياة المخاطرة ، يحس الطمأنينة فيهرب منها

إلى القلق . . . ويجد عملا منظماً فيه عشرون جنيهاً كل شهر ، فيضيق به ويتركه إلى عمل كله مخاطر ، ولكنه إذا نجح منحه مائة ومائتين وربما ألفاً . . . إنه يفكر بعقلية الموج الذى يصطدم بصخور الشاطئ لكي يفتتها ، إنه يبحث عن المخاطر وعن المجهول الذى لايعرفه أحد ، ويترك الحياة المنظمة الرتيبة للملايين ، لعشرات الملايين ، ويعيش مع القلائل أمثاله ممن يحبون المخاطر ويخلقونها خلقاً . الذين يؤثرون أن يعيشوا عمراً قصيراً عريضاً بدل أن يعيشوا عمراً طويلا لاعرض له .

هذا الفريق القليل الصغير هو الفريق الذى يدفع الحياة إلى الأمام ويثير فيها الحركة والنبض ، هو الذى يخلق ويبدع وينشئ الثروة . ويخترع ويسعى إلى المجهول كي يعرفه ، ثم يجعل الآخرين ، الملايين المتكررين ، يعرفونه . . . العالم كله يعيش على جهدهم ومع ذلك فما أقل الثمن الذى يدفعه لهم .



خليها على الله !

« خليها على الله » ! . . أحب أن تلغى هذه الكلمة من قاموس حياتنا ، إنها دليل العجز والتواكل والفهم الخاطئ للإيمان . نحن شعب صغير فقير متواكل . والصفة الأخيرة هي الكارثة التى تفتت قوانا وتضعف بصيرتنا ، وتجعل حياتنا سلسلة من الأخطاء والفشل والإخفاق .

أعجبنى عالم من الجزائر ، رجل من رجال الدين هناك ، بل كبير رجال الدين ، قال إن الله ليس مستعداً أن يغير نواميس الكون من أجلنا نحن — وهو يعنى الشعوب الإسلامية — شعوب متواكلة متكاسلة ، وتعتقد أن مجرد ترداد عبارات العبادة والصلاة على النبى كفيلة بقضاء الحاجات .

وهذا الكلام صحيح ، يجب أن نكف عن الخرافة التى تقول لنا إن الدعاء بغير عمل يمكن أن يؤدى إلى تقدم فى حياتنا كأفراد أو شعوب أو دول . . إن هناك عشرات الألوف ، بل عشرات الملايين فى الشعوب الإسلامية لا تزال تعتقد فى الأحجبة والآيات القرآنية التى تكتب عشرات أو مئات المرات على ورق أصفر كريه أو فى دائرة أو مستطيل يكفى حملها لكى يتقى من المكروه أو يجلب الخير .

إننا شعوب تعيش فى خرافات وتعتمد على خرافات ، وتنسى حقيقة الدين الذى ندعى أننا أتباعه وحماته . هذا الدين الذى يجعل العمل قاعدة الحياة وأساس العبادة ، فنترك الحياة وأساسها لنتعلق بأوهام ونعتقد أن مجرد تلاوة أدعية أو أوراد أو عبارات ملفقة من هنا وهناك كفيل بإبادة الكفار ، وقضاء الحاجات ، وتحويل التراب إلى ذهب!

أجل ؛ فقد عرفت بعض العلماء من المسلمين يزعمون للناس أنهم مستطيعون أن يحولوا النحاس إلى ذهب بأدعية من القرآن . . والقرآن برىء منهم إلى يوم الدين !

أعياد واحدة للعالم

تصورت الحياة من غير أعياد ، عملا متصلا بالليل والنهار ، خيطاً غير منقطع ، كدّاً ونصباً ليس فيها نفس هادئ ولاقلب ساكن ، ولاعين وادعة ، وأحسست كم تصبح ثقيلة ، سقيمة ، أشبه بالصحراء التى لا واحة فيها .

وقبل أن تفرض الأديان السماوية الأعياد فرضتها العبادات الوثنية ، وفرضتها جماعات الإنسان الأولى فى عهد الغابة والقبيلة ، ولو لم تفرضها الأديان والوثنيات لفرضتها طبيعة الحياة . وليس يوم العيد فى ذاته يوماً يمتاز عن بقية الأيام من حيث إنه شمس تطلع وتغيب ، وليل يجئ ويذهب : فامتيازه يجئ من النفسية التى تستقبله بها فإذا شمسه غير شمس بقية الأيام ، وإذا ليله فيه بهاء وسناء ليس لبقية الليالى مثلها .

ومن هنا كانت النفس الإنسانية أقوى ما فى تركيبنا ، وكانت قلوبنا إشعاع السعادة والشقاء ، ومصدر الهدوء والقلق . وربما كان العيد بتجاوبه مع نفوسنا وقلوبنا يفسر ما يقوله البعض من أنه كان عيداً تعساً أو سعيداً بالنسبة لهم . وقد حلم الكثيرون من الإنسانيين بأن تكون للشعوب والأجناس والأقوام أعياد واحدة ، وهذا يبدو حتى الآن حلماً بعيداً ، فلا تزال لكل طائفة ، ولكل جنس وشعب وإقليم وقرية ومنطقة أعيادها الخاصة بها ، وقد تكون رمزاً لاختصاصها دون الآخرين بميزات أو صفات ، وقد تكون رمزاً للعداء أو الاستعلاء أو الانعزال عن بقية الشعوب والأجناس بعقيدة معينة أو انطباعات خاصة .
ومهما يكن الرأى فى الأعياد ، فإنها بصفة عامة تقلل من ضراوة الإنسان وترده إلى سلوك من المحبة والخير ، إن لم يكن بالنسبة للجنس

البشرى عامة فعلى الأقل بالنسبة لجزء من هذا الجنس محدود بإقليم أوعقيدة أواشتراك فى تاريخ أو أمل أو ألم .

وتعد الأعياد الإسلامية أعياداً من الإخاء والمحبة والتعاون بالنسبة لجميع المسلمين أيًّا كانت بلادهم التى يسكنونها وجنسياتهم التى ينتمون إليها . ومن هنا كان المبدأ الذى قررته الشريعة الإسلامية عن « دار الإسلام » بحسبانها قومية وجنسية وأرضاً تعاوفيها أحكامها ويتعاطف أهلها ويتعاونون . وموسم الحج حيث يجتمع المسلمون من كل بلد قصد، فيما قصد من حكمته ، أن يكون مناسبة لهذا التعاون والتعاطف.



من كان يعرف ؟

من كان يعرف مصير الدعوة المحمدية ، والنبي الكريم وصاحبه يسعيان من مكة إلى المدينة يلتمسان وجه الله وفتحه المبين ؟ . .

من كان يعرف أن هذا الحادث الجديد سيصبح فى تاريخ البشرية أحد معالم الطريق ، بل أعظم معالمه ، يهدى إلى الخير والنور والمحبة والإيثار؟ . .

إن كل الكتاب الأجانب الذين أرخوا للدعوة المحمدية، أوتناولوها بالبحث والتعليق ، قد أجمعوا على أن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة كانت نقطة تحول خطيرة فى مصير الدعوة ، وأنها دفعت بها دفعاً إلى الذيوع والانتشار .

ومع استثناء فريق من المتعصبين أو المغرضين ، أجمع المفكرون الأجانب على أن الإسلام بث فى العالم أعظم دعوة للتحرر ، وأطلق الفكر الإنسانى من قيود الخرافات والتضليل التى كبله بها الحكام المستبدون وبطانتهم خلال القرون الوسطى .

وقد أخطأ بعض من كتبوا عن الدعوة الإسلامية ، فقالوا إنها لم تنتشر بالإيمان ولكن انتشرت بالسيف . ومفاد هذا الادعاء ، او كان صحيحاً ، أن يرتد عنها الناس متى زالت عن الإسلام قوة السيف . وقد تدهورت الدول الإسلامية منذ أمد طويل ، وأضحت من هذه الناحية أضعف من كل ماجاورها من دول وقوات وأصحاب سلطان، فهل ترك أحد ممن آمن بالإسلام عقيدته، أو استمسك بها وذاد عنها شر القوة والعدوان ؟ . .

ندع للحوادث والتاريخ الجواب ، وحوادث التاريخ القديم والحديث

تؤكد أن المسلمين فى كل قطر ومصر صمدوا للدفاع عن عقيدتهم بما لم يصمد أحد فى الدفاع عن عقيدته . وقد ارتدت عن الإسلام كل الموجات العاتية ، وكان إيمان أهله به أشد من كل ماتعرضوا له من ضعف وهوان .

وأكثر الكتاب الغربيين يشهدون أن الحركات القومية للتحرر وطلب الاستقلال التى سادت الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث إنما تستند فى أعمق أعماقها إلى الإيمان الدينى أكثر مما تستند إلى الفهم السياسى . وأن أية حركة فى أية بقعة من بقاع العالم الإسلامى سرعان ما يتجاوب صداها فى كل بقاع هذا العالم ، وأن الإسلام رابطة أشد تأثيراً فى نفوس أهله من رابطة الدم والجوار والوطن واتحاد المصالح .

والواقع أن الإسلام قضى على العصبيات القبلية والعائلية والوطنية : وأحل محلها عصبية الدين نفسه بحسبانه قواعد للسلوك والخلق والحكم القائم على الشورى ورعاية الحرية للأفراد . وإذا كانت هذه القواعد قد ضعفت فى بعض مراحل التاريخ الإسلامى فإنها لم تفقد جذورها قط ولا تزال وستظل أبداً ، تطبع تاريخ هذه الدعوة التى نقلت البشرية من حال إلى حال .

كل شيء بمقياس

أيهما تطيع ؟ قلبك أم عقلك ؟ وهل فكرت فى الصراع المستمر القائم بينهما ؟ إنه صراع موجود فى كل وقت وفى كل لحظة ، وهو موجود فى كل إنسان . وإقامة التوازن بينهما هو سر السعادة ، والانحراف إلى واحد دون الآخر هو سر الشقاء .

عرفت صديقاً آمن بأن الحياة هى حياة العاطفة ، وانساق معها دون وعى أو تفكير . أحب وأبغض ، امتلأ بالحقد ، وساير شهواته ، فأنفق سنوات من عمره يدبر للكيد والانتقام. لم يعرف طريق العقل . وانساق وراء نزواته ، فبدد بعض ثروته وخسر أصدقاءه ، وأصبح يقضى عمره فى حسرة العاطفة دون رضاء العقل واتزانه . وهو حتى اليوم يرفض أن يسمع لهدوء التفكير ، ويؤثر عليه ضجيج العاطفة . وهو يقول إن العقل موت والعاطفة انطلاق . وأنا أكره أن أموت قبل الأوان ، فما دام الجسد ينبض ، فإن نبضه عندى اختلاج العاطفة ولا شىء غيرها !

وعرفت صديقاً آخر ، كل شيء عنده بمقياس . الحب ليس إلا علم التشريح . يبدأ نزوة وينتهى كارثة . العقل يقول إنه لا يوجد . علماء النفس يحددون موجاته واندفاعاته .القلب عنده وعاء . انفعالاته تقاس ، ونبضاته كل منها بميزان . والإسراف فى النبض يضعفه .

ويريك رسماً تشريحيًّا للقلب ، ويقول : انظر ، إذا غضبت كيف يستجيب القلب ، وإذا خنت كيف يستجيب ، وإذا حقدت وكتمت كيف ينقبض وينبسط ؟ . . . من الخير ألا تفعل شيئاً من هذا كله ، لأنه يحسب من عمر قلبك ، أعنى من عمرك !

كلاهما مخطئ . كلاهما يعيش من الحياة نصفها . فلا جفاف العقل يمنح السعادة ، ولا اندفاع العاطفة يمنح السعادة . إنما تسير الحياة متوازنة إذا رَطَّبت العاطفة جفاف العقل ، ووزن العقل اندفاع العاطفة .



هل هي موهبة !

القراءة متعة لن يغنى عنها شيء ، والذين يهتدون إليها لايشبعون منها . وقد عرفت من الناس من لايطيق فتح كتاب ، وعرفت منهم من لايطيق ترك الكتاب حتى يأتى على آخره .

الأول أصم ذو سطح أملس لايتجاوب مع الحياة ، ولا تتجاوب معه الحياة ، يمر به العمر وهو لايتقدم ولايتطور . والثانى متوهج متفتح ، يثرى حياته بالمعرفة ، ويدرك معنى التطور ، ويسير مع الحياة فى سباق ، لايتخلف عنها وقد يسبقها بالفهم والتنبؤ بما سيكون .

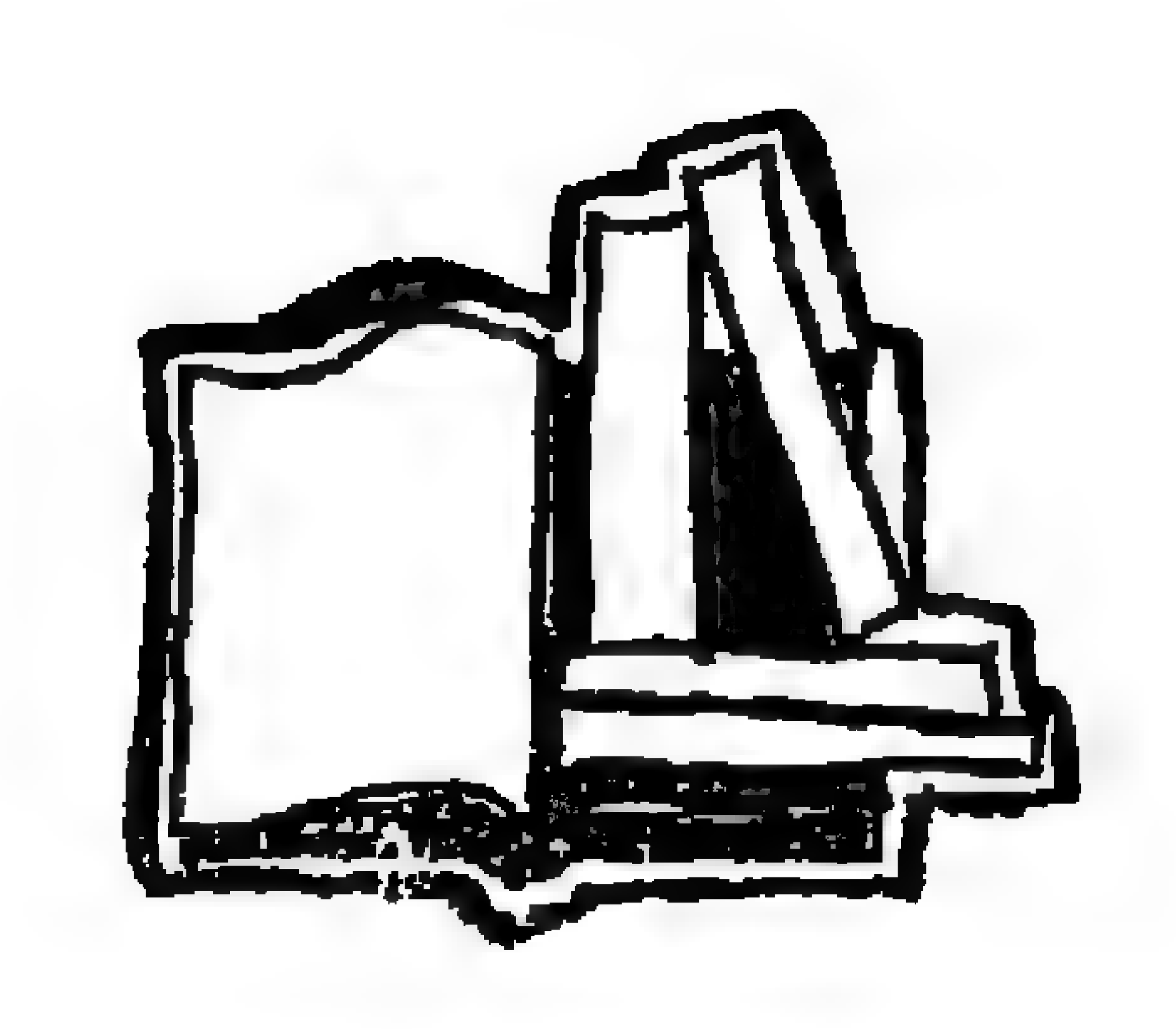
وقد سألنى بعض الناس تفسير هذا التناقض بين اثنين كل منهما قادر على القراءة ، أحدهما يلتهمها والثانى لايطيقها . هل هى هبة طبيعية أو مقدرة مكتسبة ، وإذا كانت هبة طبيعية فلا ذنب لمن ينفر من القراءة ، وإذا كانت مقدرة مكتسبة فما هى الطريقة لتنميتها واكتسابها ؟

أما أن حب القراءة هبة طبيعية فلا شك فيه ، فإن من الناس من يهيمون بالقراءة وحب المعرفة منذ الصبا الباكر جداً ، ولا يكادون يتخلون عنها ، فيزيدهم العمر رغبة فى الاقتحام والمعرفة . وقد قلت الاقتحام لأن المعرفة تتطلب فى بعض الأحيان الاقتحام لما هو صعب من أنواعها ، وتحتاج إلى جهد ثقيل لايقبل عليه إلا ذوو الاستعداد الطبيعى .

أما أنه مقدرة يمكن أن تكتسب وتنمى فصحيح أيضاً . واكتسابها يكون بتغذية الرغبة فى المعرفة والتشويق والتيسير . وشأنها شأن أى مقدرة مكتسبة ، ينبغى أن نبدأ بقراءة اليسير المسلى من الكتب والهين الخفيف

منها ، ثم نتدرج إلى ما هو أرق وأعمق ، وهكذا حتى تثبت العادة ، فإن القراءة عادة ، ومتى أدرك الإنسان لذتها وأحس بها لزمها طول عمره .

وما أحوجنا إلى القراءة ، أعنى إلى المعرفة ! وحينما أقول القراءة لا أعنى السطحى والهش منها الذى لايثبت ولايثير فى الذهن قضية أو فكرة ، ولكننى أعنى الجادّ منها الذى يحتاج إلى كد ومعاناة وتحريك مستمر للعقل .



تغير الآراء

كنت أقلب أمس فى أوراقى القديمة . رجعت إلى آراء أبديتها منذ ١٥ سنة وقارنتها بما أعتنقه اليوم من آراء ، فلم أجد أنى تغيرت فى قليل أو كثير من حيث جوهر الآراء . قد يكون هناك تغير فى التفاصيل ، فى أساليب المحاجة والتدليل ، وربما كان ذلك راجعاً إلى نضج التجربة وطول الممارسة .

وساءلت نفسى : هل من الخير أن يثبت الإنسان على ما اعتنق من آراء وأفكار أو لا بد أن يتطور بتطور الحوادث ووضوح عوامل جديدة ؟ وظاهر أننى لا أعنى هؤلاء الذين يبدلون الآراء كما يفعلون مع الملابس ، ولا هؤلاء المنافقين الذين يدورون مع الريح أينما دارت ، ولكننى أعنى الآراء التى ينفعل بها الإنسان ، ويصل إليها بعد دراسة وإنعام نظر . هل من الخير أن تتغير أو لابد لها من ثبات طويل ؟

والعدول عن الآراء ليس عيباً إذا جاء نتيجة الاهتداء إلى حجج جديدة يقتنع بها الإنسان ، وكانت خافية عليه . وقد يكون العدول نتيجة تغير المجتمع نفسه والإحساس بأن الرأى القديم بظروفه القديمة إن صح فيما مضى ، فإنه لم يعد صحيحاً مع التطور الحاصل .

والنظريات الخلقية والاجتماعية والسياسية تتغير باستمرار ، لأنها دائبة الحركة . والثبات فيها — أعنى فى الجماعة والنظريات — غير متصور . ونحن نعرف أن لكل عصر من العصور مثلا وأفكاراً وتقاليد وانفعالات .

وقد ذاعت فى القرن التاسع عشر نظرية الحرية الفردية إلى حد أن الدولة كانت تذاد عن التدخل فى كل ما يخرج عن واجباتها

الرئيسية الثلاثة ، وهى رعاية العدل . وحفظ الأمن فى الداخل ، ودفع الغزو من الخارج . وكانت قاعدة النظرية أن النشاط الفردى هو أساس العمران ، وأن الفرد فى سعيه لتحقيق مصلحته الخاصة يسعى ضمناً لتحقيق مصلحة الجماعة .

واليوم يعد المتمسكون بهذا النظر متخلفين ، فالدولة فى مختلف بقاع العالم تتدخل فى كل شىء تقريباً ، وهى تدعى له . وتدفع عليه ، سواء من جانب الشعوب أو من جانب الجمهرة الغالبة من المفكرين .

وليس هذا إلا مثلا واحداً ، يمكن أن تساق إلى جانبه عشرات الأمثلة .



الخيال والواقع

يؤكد الخبراء فى « مسائل العلاقات والمشاكل الزوجية » أن الخيالات التى يضفيها كل من العروسين على الزواج فى الفترة السابقة عليه ، هى السبب الأكبر فيما يحدث بعد ذلك من تعاسة ومتاعب ، تؤدى فى كثير من الأحيان إلى الطلاق .

ويحسب كثير من الشباب أن الحب عصاً سحرية تستطيع أن تتخطى العقبات ، فالفوارق فى السن والثروة والثقافة والعقلية لاقيمة لها ، ما دام الحب ينشر جناحين الرقيقين .

ولكن واقع الحياة شيء آخر غير خيالات الحب . والزواج واقع ، وواقع مر فى كثير من الأحيان ، لأنه تعاون على مواجهة الحياة . وليس القدر خادماً لنا فى كل الأوقات .

والحب ينبوع للقوة والسعادة . ولكنه فى الزواج ينبغى أن يكتسى شيئاً كثيراً من الواقع ، وإلا أضحى عبثاً . لأن مقارنة الخيال الجميل بالواقع ، أو محاولة نقل الواقع إلى عالم الخيال ، كلاهما مطلب مستحيل .

والواقع أن الحب الخيالى يفسد الزواج فى كثير من الأحيان إن لم يكن فى كل الأحيان . والزواج يتطلب حباً واعياً ، أعمق من الخيال ، وأكثر اتصالا بالعقل . والحب الخيالى امتلاك ولهفة ، وتكريس وتضحية ، وافتراق ولقاء ، وفيض من السعادة وجحيم من العذاب ، وتطبيقه فى الزواج متعذر . فالامتلاك مع العشرة الطويلة المستمرة عبودية . واللهفة تخمد مع طول الوقت . وعبارات الحب تنضب أو تفقد بهاءها مع التكرار الممل . والعيوب تظهر ، والأولاد والبيت والعيشة سبب للخلاف حول



أشياء مادية صغيرة تافهة ، أو سبب للاتفاق ، فالأمران سيان ، وكلاهما بعيد عن خيال الهناءة والضنى وأغاريد القلب النابض المتوله .

وربما كان الرجل أكثر واقعية من المرأة . فقلبها يأسرها وعواطفها تسيطر عليها ، وأحلام اليقظة تكاد تكون خبزها اليومى . والرجل تشغله أعماله وجهاده من أجل الرزق ، والزوجان الفاهمان هما اللذان يستطيعان أن يقترب كل منهما من صاحبه ، فالرجل الواقعى ينبغى أن يكون خيالياً فى بعض الأوقات ، والمرأة الخيالية يجب أن تكون واقعية فى بعض الأوقات .

والخيال إذا طال أضحى ثقيلا ، والواقعية إذا طالت أضحت مرة ، والطبيعة تعطينا المثل على ما ينبغى أن يكون ؛ فما أجملها فى الليل الساكن الموحى بأعذب الأحلام ، وكم هى واقعية إذا ارتفع النهار ، وانطلقت العصافير من أوكارها تسأل ربها رزقها !



سر الشرارة

ما هى الشرارة التى تقدح الفكر فتلهمه ؟ هل هى الحب ؟ هل هى التجربة ؟ هل هى النظر الصافى العميق ؟ هل هى الدراسة والقراءة ؟ هل هى لمسة علوية من قوةغير منظورة تصطفى من تصطفى لكى يحمل رسالتها ؟

إنها شرارة من القلب والعقل والوجدان تلك التى أضاءت فى كل مكان من العالم ، شرارة صغيرة هبطت على قلب أو عقل أووجدان ، فإذا به يخلق فناً أوعلماً أو اختراعاً أو رسالة علوية للإيمان والدين .

ما سر هذه الشرارة ؟ هل تختار أنبياءها ورسلها ، أو أنها تنطلق دون اختيار ، يلتقطها من يلتقطها ، وتستجيب للقلب المتفتح ، أو للعقل الواعى ، أو للوجدان الذى وهب السعة والعمق ؟

ليس العلم شرطاً ، وليس الحب ولاغيره من العواطف هو الذى يلهم ويستجيب ، ولكنه الصفاء المطلق والنظر الذى لاتحده حدود ، ولاتقف دونه سدود . ومن هنا جاءت أعظم الرسالات فى الأدب والفن والدين ، وربما فى العلم والاختراع ، حيث كانت أصفى العقول والقلوب والوجدانات ، دون أن تكون أغناها أو أكثرها علماً وسلطاناً .

وما من إنسان هبطت عليه رسالة من هذه الرسالات إلا كان إنساناً بخلقه وطبعه ووجدانه . فإن الطبيعة لاتمنح أسرارها إلا من كان كفاءها طيبة وحباً وإيماناً .

فإذا رأيت إنساناً لايصفو فى عواطفه وملكاته وما حصل من علم ومعرفة ، فاعلم أنه أبعد ما يكون عن الشرارة التى تجعله خالقاً مبدعاً . قد يغتنى ، قد يجمع مالاً ، قد يصبح له فى الدنيا سلطان ومجد ، ولكنه لن يبلغ

مرتبة الخالدين.. لن يبلغ من قلوب الناس ما فيها من حب وخير وانعطاف .

والزعماء الذين كسبوا الحب ، وألهبوا عواطف شعوبهم ، وعاشوا فيها عبر السنين والقرون ، لم يوهبوا هذا كله إلا لأنهم أحبوا شعوبهم حقًّا ، وسرى من قلوبهم تيار التقى بالملايين ، فإذا بهم يأخذون ويعطون . وإذا الشرارة التي جمعت القلوب على حبهم تنبع من قلب عرف الصفاء والحب .

هذا هو سر الزعامة وهذا هو سر الحب . إنه شيء غير منظور ولا مفهوم ولكنه موجود .



أحسن وقت للقراءة

ما هو أحسن وقت للقراءة ؟ هل هو الوقت الذى تخلو فيه من المشاغل والهموم؟ أو أنك تستعين بالقراءة على الهروب من المشاغل والهموم؟

بعض الناس يقرءون لكى يجلبوا النوم . وبعضهم يقرءون لكى يستزيدوا من المعرفة ، وبعضهم لكى يتسلوا . وبعضهم لايقرأ أبداً . ولا أعنى بالقراءة قراءة الصحف ولكن قراءة الكتب .

والقراءة الصحيحة هى قراءة التأمل والوعى . وقد اعتدت أن أسمع من أحد معارفى قوله فى وصف نفسه إنه يقرأ حتى لايستطيع أن يرفع يده أويفتح جفنه . وأكد لى أنه قرأ كل شىء تقريباً . ما من كتاب وقع فى يده إلا أتى على آخره وهو يقرأ فى كل الفروع والعلوم ، فى الأدب والسياسة والاقتصاد والميكانيكا وقيادة السيارات وتربية الدواجن .

ويسألنى : ماذا أفدت من كل هذا الجهد ؟

وأجيبه : أى فائدة تقصد ؟

فيقول : أعنى الفائدة المادية ، ألا يؤكد كل الناس أن من تزيد معلوماته يزيد كسبه ؟

ترى هل يخطر ببال كل إنسان مثل هذا الخاطر ؟ وهل يضع نصب عينيه وهو يختار الكتاب الذى يقرؤه الفائدة التى تعود عليه فى عمله من قراءته ؟

إن هناك فرقاً بين القراءة للدراسة والقراءة للمتعة الذهنية والعاطفية . والنوع الثانى هو الذى يصنع الإنسان الذى لا يعنى بالمادة ولكن يعنى بالقلب والروح والعاطفة . أما النوع الأول فيصنع العالم الدارس الباحث وراء المادة .

وقد قال لى أحد الناس إنه يقرأ جرياً وراء الحقيقة . واستوضحته أى حقيقة يعنى ؟ فيقول حقيقة الكون ، حقيقة الوجود ، حقيقة الإنسان . وأقول له : ستنفق عمرك دون جدوى ، إن الحقيقة الوحيدة التى يجب أن نؤمن بها هى اللحظة التى نعيش فيها ، هى العمر الذى وهبناه . أنت موجود فأنت حى !

وقال لى آخر إنه يقرأ لكى يرتاح من متاعبه . وقد وجد فى القراءة لذة أنسته كل شىء . إنها أشبه بالمخدر . إنه مع الشعراء والكتاب والفنانين فى عالم من الأحلام والرؤى .

وقال ثالث : إن القراءة تسبب له الصداع . وخير أوقاته هى الأوقات التى ينام فيها . والنوم أحلام أيضاً .



الأفكار لا تنتهى

سألنى أمس طالب فى معهد الصحافة : هل هناك بد من إيجاد فكرة كل يوم للكتابة فيها . وماذا لو عجز الكاتب عن خلق فكرة أو موضوع للكتابة ؟

قلت له : إن الأفكار لاتنتهى . والعقل . هذا الجوهر الصغير غير المنظور ، لايكف أبداً عن التدبر والتأمل . إن الحياة متجددة ونحن عنصر من عناصرها . ويوم نقف عن التفكير . نقف عن الكتابة ، بل تقف الحياة فينا — انظر ، منذ كم سنة اخترعت المطبعة ؟

قال : من أوائل القرن السادس عشر .

قلت : أعنى منذ نحو ٤٠٠ سنة ، فهل عرفت أن المطابع كفت يوماً عن النشر والطبع ؟ وقبل اختراع المطبعة ، كانت الكتب تنسخ بالخط وبالحروف الخشبية وبعشرات الوسائل البدائية . إن ما خلفته القرون لنا من ثروة فى الفكر والفهم والرأى لايمكن تقديره . وما تخرجه المطابع الحديثة فى سنة واحدة يزيد على ما كانت البشرية تنتجه فيما مضى فى قرن كامل من الزمان ، وإن المطبعة الحديثة ، كالصحافة الحديثة ، كل منهما تسوقنا لكى نفكر ونتتج ونبدع . لا تترك لنا فرصة للراحة والسكون ، وكل هذا خير . إن الحياة حركة . وهى ليست حركة فى اليدين والقدمين والمعدة فحسب ، ولكنها أولا وقبل كل شيء حركة فى العقل والنفس والفكر والفؤاد .

هل يستطيع أحد أن يكف عن الأكل والشراب ؟ فلماذا تريده أن يكف عن التفكير وهو الحالة الأسمى للإنسان ؟

وعندما بدأت أشتغل فى الصحافة بدرت إلى خاطرى مثل هذه الفكرة .

قلت : هل يمكن أن أجد كل يوم موضوعاً ، وقد وجدت . أيقظت الفكرة فكرة ودفعت الموجة موجة ، وتحرك الذهن حتى لتتزاحم فيه عشرات الموضوعات والآراء ، كل منها تريد الظهور .

إن العقل تتفتح شهوته للتفكير ، تماماً كما تتفتح شهوة المعدة للطعام . إن التفكير غذاؤه وقوامه ، هو خبزه وحياته .



شفاء النفاق

رأيت فى لبنان منافقين ، كنت أعرفهم بسيماهم . فإذا تحدثت إليهم ، تأكدت أن ظنى لم يخب ، وأن معرفتى أضحت يقيناً . هل هم أكثر من زملائهم فى مصر أو أقل ؟ لست أعرف . ومن يدرى لو طالت إقامتى فى لبنان واستطعت أن أحصيهم عدداً ماذا تكون النتيجة ؟

هل العلم يشفى من النفاق ؟ هل المال يعصم صاحبه منه ؟ ربما كان الجواب ، إذا احتكمنا إلى المنطق ، أن العلم والمال كلاهما ترياق ناجع ضد النفاق ، ولكن الواقع يقول غير هذا . . . وقد رأيت الصراحة والقول المبرأ من الهوى عند الجهال أو من لم يتح لهم حظ كبير من الثراء .

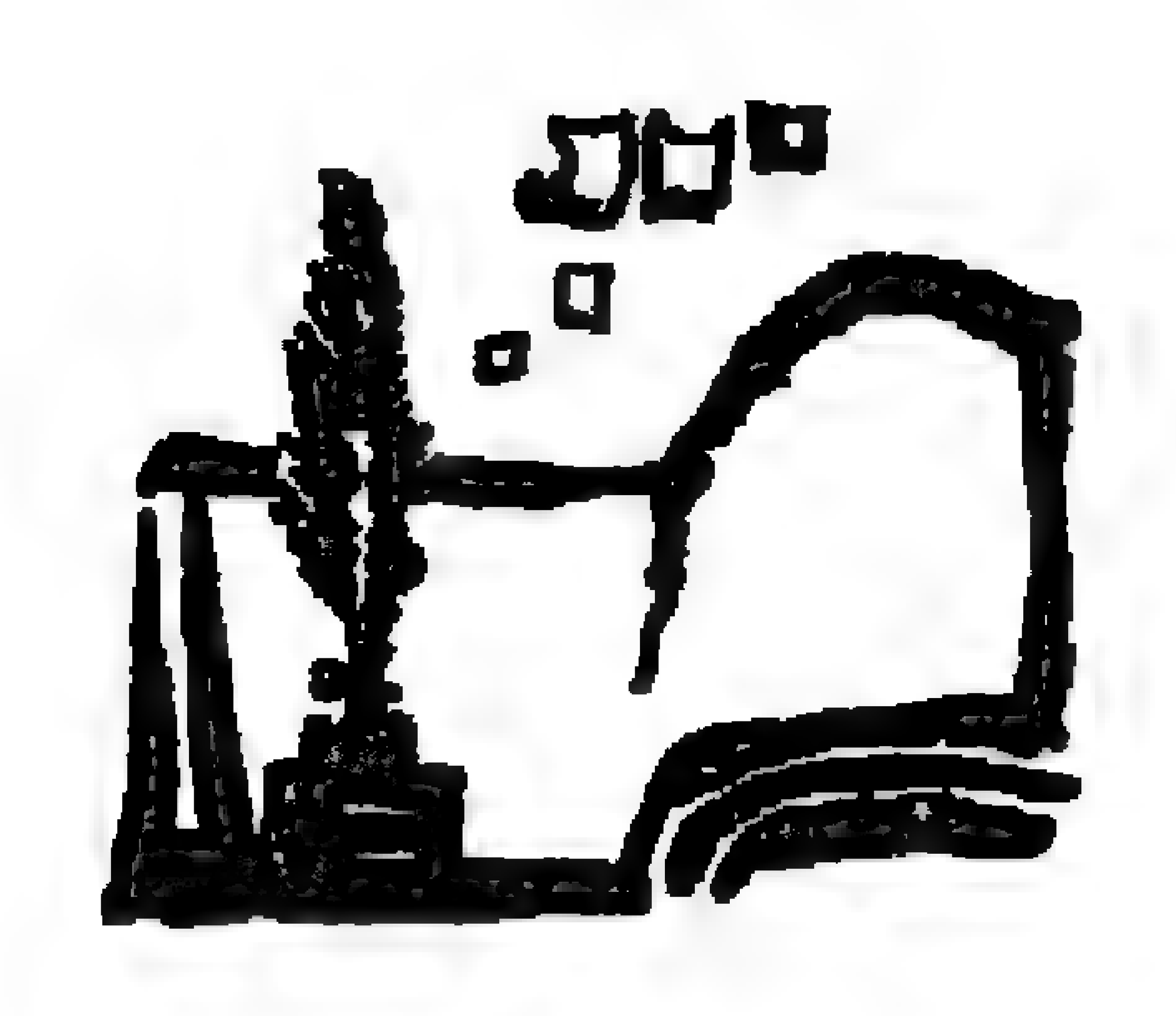
ما هو التفسير إذن ؟ لعل صاحب العلم يرى بلد تاته أن النفاق أدنى أن يبلغ به مايشاء ، ولعل صاحب المال يرى النفاق وسيلة سهلة للاحتفاظ بما لديه من مال وللاستزادة منه إذا كان طامعاً فى مزيد ، وقلما يوجد صاحب مال لايطمع فى مزيد .

وإذا عددنا من النفاق قول صاحب الدكان إنه يبيعك سلعته بأقل من سعرها لأنه أحس أنك أدنى إلى قلبه من كل من دخل دكانه أو لأنه شعر أنك إنسان محترم تستحق الإكرام ، فإننا نضع أصحاب الدكاكين جميعاً فى قائمة المنافقين . ولو عددنا من النفاق ترحيب الناس بعضهم بالبعض الآخر وتأكيدهم أن الشوق برح بهم ، وأن النوم طار من عيونهم إشفاقاً لما أصابك ، لما نجا أحد من مذمة النفاق .

ولكن هذا ليس نفاقاً ، إنه نوع من المجاملات التى لا بد منها .

وسواء أكان صحيحاً أم غير صحيح ، فلا ضرر منه ، وقد تصدقه أو لا تصدقه وهو على الحالين لن يؤذيك .

والنفاق الذى عنيته هو النفاق فى عالم الآراء ، ونفاق من عندهم قضاء الحاجات .



إراحة العقول

هل جربت أن تتزاحم الأفكار فى خاطرك . . فلا تعرف أيها تقدم وأيها تؤخر ؟ . . هل جربت هذه الميوعة فى الذهن ، دون أن تعرف حدود فكرة من فكرة أو الخيط الفاصل بينهما ؟ . .

وهل جربت الجدب فى خواطرك وأفكارك ومعلوماتك وأمانيك ؟ . . هذه الحالة التى تكون فيها شبه يقظ وشبه نائم ، شبه إنسان يفكر وإنسان لاتفكير له ؟

إن العقل كالجسد يرهق ويركد ، ويضعف وينسى ويضطرب عليه الأمر إذا أصررت أن تكده وتقسره على أن يعمل . . خير وسيلة حينئذ أن تكفّ عن التفكير العقلى . . وتلجأ إلى التسلية الرقيقة التى لاتفكير فيها ولاتعقل . .

عرفت صديقاً اعتاد أن يريح ذهنه بعد السابعة مساء ، فلا يتخذ قراراً فى أى شيء ذى خطر ، وقد حاولت أن أصرفه عن هذه العادة فأبى أن يستمع إلى . . وكثيراً ما حاولت أن أدفعه إلى التفكير العميق بعد هذا الموعد ، فلم أفلح وغاية ما كان يقوله حينئذ : « دع هذا الموضوع إلى غد » .

وسألته : كيف يستطيع أن يكف نفسه عن التفكير العقلى بعد موعد معين ؟ . . هل العقل آلة تشتغل بالإذن والأمر ؟ . .

قال : إنى لاأكف عن التفكير لحظة ، ولكننى متى أقبل المساء وفرغت من أعمالى — وهى مرهقة كما تعرف — دفعت عن خاطرى كل تفكير أحس أنه يقتضينى جهداً عقلياً ، واقتصرت على الأفكار

السهلة المرحة التى لاتكلفنى عناء ، ولاتحتاج منى إلى إنعام نظر وتدبر . . فإذا عرضت لى مشكلة ولم تكن عاجلة نحيتها جانباً عن تفكيرى إلى أن يصبح الصباح ، وأكون قد استوفيت حظى من الراحة ، فأجد عقلى يجيبنى بأسرع مما أريد ، وأسلم مما أريد . . نحن نريح أجسادنا ، فلماذا لا نريح عقولنا ؟!



الله صادق وعده

هل أحسست مرة أن الدنيا جميلة جمالا لاحد له؟ وهل أحسست مرة أخرى أنها ثقيلة لاتحتمل ، تعسة لاتطاق ؟

ما من أحد منا إلا أحس هذين الإحساسين . وما من أحد إلا غمرته السعادة حتى شعر أنها أكثر مما يطيق ، وشمله الشقاء حتى شعر أنه أكثر مما يحتمل ، ومع ذلك لاأكاد أتحدث إلى أحد أو يتحدث أحد إلى ، إلا يشكو الحرمان الذى يعيش فيه ، وإلا يؤكد أن حظه أسوأ الحظوظ ، وما حمله القدر من بؤس وشقاء أضخم بكثير مما حمله لغيره من الناس!

أترانا ننسى أمواج السعادة التى تمر بنا فى الحياة ، ولايرسب فى الخاطر إلا لمحات اليأس والألم والشقاء ؟

أترانا نعد السعادة حقًّا ونعد العناء الشذوذ ؟

أم ترانا لانعرف الشكوى إلا حين تظلم الأيام ، وينحرف القدر السعيد عن طريقنا ، فإذا أضاءت البهجة أيامنا لم نر أن نعترف بها أو نذكرها أو نحمد الله من أجلها ، لأننا نراها حقًّا نستمتع به ، ونراها القاعدة التى لانحتاج إلى ذكر أو تعريف .

مرت هذه الخواطر بنفسى ، وأنا ألتقى فى إحدى ضواحى القاهرة برجل فقير ، بل معدم ، مشوه الخلقة ، ثقيل السمع ، ومع ذلك كان يتبسم ويبدو سعيداً ، قلت له :

إلى أين ؟

قال : أسعى وراء رزقى ، أولاد الحلال كثيرون

قلت : من غير وجهة ؟

قال : وهل يكون لمثلى وجهة ؟ هل لى عمل ؟ كلا . هل هناك أحد

ينتظرنى؟ كلا . هل لى أقارب ، زوجة وأولاد ؟ كلا . إننى أصلى باستمرار ، أسبح الله مالك الملك ، مانح الخير والشر القادر على كل شىء .

قلت : وأنت سعيد؟

قال : ولم لا أكون ؟ لقمة عيش صغيرة تكفينى . ركن فى شارع ، فى منعطف حارة ، فى مسجد ، فى زاوية ، فى بيت رجل كريم يؤوينى . . . وإنى لأنتظر أجلى قرير العين ، راضياً . أنا لست من أبناء الدنيا ، جزائى فى جنات الله وملكوته .

قلت : وهل للدنيا أبناء وللآخرة أبناء ؟

قال : انظر حولك . إن المحرومين فى هذه الدنياهم عيال الله . إنه يمتحنهم بالصبر والحرمان ليفتح لهم يوم الدين ملكوت السموات. أليست قسمة عادلة ؟

قلت : عادلة ، ولكننى أراك سعيداً فى الدنيا وسعيداً بالآخرة .

قال : هكذا وعد الله عباده الصالحين ، والله صادق وعده !

فى عقلك قوة جبارة

ما أصدق قول الفيلسوف الكندى « روبرت بيرنز » إن أكثر تعاسات الناس لايجىء من روح الشر والأذى أو من الحكومات الرديئة ، بقدر ما يجىء من حوادث المضايقات الصغيرة لسوء التفاهم البرىء الذى يقع بين بنى البشر .

. انظر إلى نفسك . تخرج من بيتك مبتهجاً راضياً ، على وفاق مع الناس ورغبة فى مصاحبتهم ومعاونتهم . فإذا بحادث صغير يقلب تفكيرك وعقلك ويجعل منك إنساناً كارهاً الناس شديد الضيق بهم .

وقد يكون هذا الحادث الصغير مجرد كلمة آذت شعورك من أحد زملائك أو من رئيسك أو من مدير العمل الذى تشتغل فيه . وقد يكون حركة تافهة فيها معنى الاحتقار أو الاستهزاء أو التحدى . وقد لايكون فيها شىء من هذا ، ولكنك فسرتها به .

إن هذه المضايقات الصغيرة تقلب حياتنا ، وتؤخر نجاحنا . وتجعلنا نستنفد أعصابنا فى جهد لاطائل من ورائه . وقد نرد الحركة بمثلها ، والإيذاء بإيذاء مثله ، فنخرج من الصداقة الطبيعية إلى حيز جديد من الكراهة والبغضاء . ثم من الانتقام والدس والوقيعة .

وإذا كنت لاتريد أن يؤذى أحد شعورك بكلمة أوحركة ، وأدركت ما يترتب عليها مما يفسد الحياة ويؤخر النجاح فيها ، فحاذر أنت أن تفعل شيئاً يؤذى شعور الآخرين .

إن الحياة أخذ وعطاء ، والنجاح مشاركة ، والعقل لا قيمة له ولوكان لامعاً عميقاً أصيلا ، إلا إذا اشترك مع عقول الآخرين وتعاون معهم . وامتياز العقل لايعنى أنه يستطيع أن يعمل منفرداً ، ولكن معناه أنه يستطيع أن يقود ، ولاتوجد قيادة إلا إذا وجد أتباع وأنصار .

وفى مثل الحياة المعقدة التى نعيشها . لانكاد نعدم فى كل وقت سبباً للإثارة والمضايقة . والذى ينجح بين هؤلاء الملايين ، عشرات ومئات الملايين من البشر ، هو الذى يستطيع أكثر من غيره أن يضبط شعوره ، ويحتفظ فى كل وقت بالسيطرة على ملكاته العقلية . سيحتاج إلى مجهود كبير قاس . ولكنه سيجنى ثمرة عظيمة . سيعيش أسعد وأصح وأطول عمراً وأعم فائدة لمن حوله من الناس .

ونحن نلتمس دائماً الأعذار لثوراتنا وحماقاتنا فنقول إنها الكرامة المجروحة أو الزراية لكفاياتنا أو تعمد الإهانة والتحقير لأشخاصنا ، وهى دفاع عن معان جميلة رائعة ، ولكن أجمل منها أن نحتفظ بالهدوء ونحن نواجهها ، فلا ندعها تفسد تقديرنا السليم .



صناعة الحياة

المصاعب هي الأشواك التي تنبت على جانبي النجاح . وأكثر الناس يحسبون أن الناجحين يشقون طريقهم بين الزهر والورود .

إن بريق النجاح يطرف عيونهم ، فلا تمتد إلى ما وراءه وإلى ما كان قبله من جهد ودمع وألم ؛ وإلى ما ينتظره أيضاً من جهد ودمع وألم .

إن الاحتفاظ بالنجاح أصعب ألف مرة من الارتقاء إليه . وكثيرون أغراهم النجاح فاستهتروا ، وظنوا أنه يكفي حينئذ أن يركنوا إلى الراحة والدعة . ولكنهم سرعان ما انغمروا وارتفع عليهم آخرون لم يسكتوا ولم تسكرهم خمرة النجاح .

إن المصاعب تصنع الدرجات التي يضع عليها الرجل الواثق أقدامه . ووجودها ليس سبباً للتسليم والسكوت ، فلا يفعل ذلك إلا الذين لا يفهمون ما هي الحياة . إنها ليست أن تجني وأنت قاعد . ولكن أن تدور حول الصخرة الواقفة في الطريق تحاول أن تنفذ في داخلها أو تفتتها أو تنحيها .

هذه هي صناعة الحياة ، صناعة الأحياء . ولولاها لكنا الآن نعيش في الكهوف ، ونقتات بالعشب ؛ ونستعمل الحجر آنية للطعام !

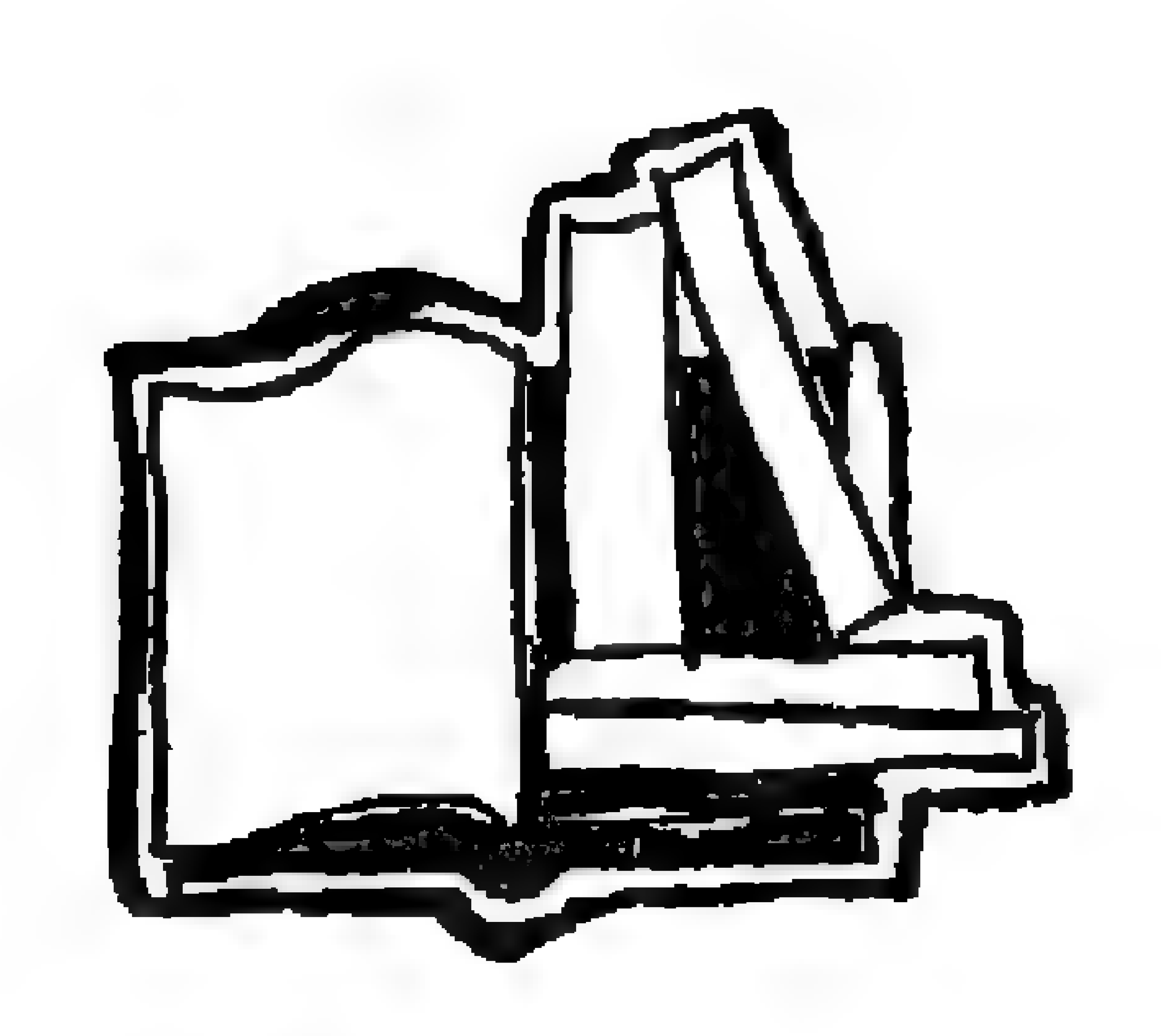
الولاء

كل إنسان سليم التفكير يبحث عن النجاح ، ويحاول أن يخرج من الغمار إلى القمة . ولكن ما أكثر ما يخطىء بعض الناس فهم أسلحة النجاح ؛ إن الولاء أحد هذه الأسلحة ، الولاء للعمل الذى تزاوله ، وللأشخاص الذين تعمل معهم ، وللمؤسسة التى تنتمى إليها . وبعض الناس لايفهم هذا ، ويحس أنه من الشجاعة أن يطعن فى الأشخاص الذين يعمل معهم ، ويغض من أقدارهم ، وينتقص من نظام المؤسسة التى يعمل فيها ، سواء كانت مصلحة أو شركة أو محلا تجارياً أو فندقاً أو ورشة .

والانتقاد شىء محبوب وجميل ومطلوب لأنه عمل للبناء ، وهو شىء آخر غير التشهير والانتقاص . والولاء شبيه بالاحترام ، شعور يجب أن يعمق الإحساس به . وهو سلوك عقلى ، لايمكنك أن تشتريه أوتستعيره أو تدعيه . وكما يقول « روى كيتوى » : إنه إذا فرض عليك فرضاً جعلك تثور فى داخل نفسك . وأسوأ من هذا الذى ينتقص من قدر الذين يعمل معهم ، من يمتدحهم ما دام معهم ، فإذا تركهم ، أطلق فيهم لسانه . إنه بذلك يدل على طبع لئيم وشخصية مريضة ورجولة ينقصها الصقل . والولاء طريق ذو شعبتين ، وأنت مطالب بأن تكون على ولاء لأهلك وولدك ، لأصدقائك ومعارفك ، لزملائك فى العمل ، لمواطنيك ووطنك .

ولعلك تلتقى فى بعض مسالك الحياة بأشخاص قلما يمدحون إنساناً أو شيئاً . قلما يرضون عن رئيس أو زميل أو صديق ، عن أب أو أم أورجل عام . إنهم نهاشون للأعراض والكرامات ، لايحسون بالولاء لشىء ،

حتى أنفسهم وأقربائهم وذويهم . إنهم يعيشون فى عزلة عن المجتمع ، والمجتمع لايعطيهم الولاء لأنهم لايمنحونه إياه . والولاء - كما قلت - ذو شعبتين أخذ وعطاء . وكثيرون من ضعاف الكفاية والذكاء مرقوا فى المجتمع إلى أعلى مراتبه ، لأنهم تحلوا بصفة الولاء . فبثوا ، فى المكان الذى هم فيه ، نوعاً من الصداقة والألفة والحب . ورفعهم هذا الولاء إلى أعلى المراكز ، لأنه صفة أساسية من صفات النجاح ، ترجح الذكاء والعبقرية . . بل إنه أحياناً كاف لكي يكسو صاحبه رداء العبقرية والذكاء .



علم النفاق

هناك عباقرة فى فن النفاق ، كالعباقرة فى الطب أو القانون أو السياسة أو الاقتصاد . والعبقرية فى النفاق قد تكون موروثة وقد تكون مكتسبة . ولكنك فى الواقع قلما تستطيع التفريق بين الموروث منها والمكتسب ، فأصحاب النوعين يختلطان فى السمات واللمحات اختلاط الماء والخمر ، لاتعرف أحدهما من الآخر .

وبعض المعاهد تعلم النفاق . وبعض التربية يعلم النفاق ، وبعض مصاعب الحياة يعلم النفاق . وأعظمه ما اشترك فيه المعهد والتربية ومصاعب الحياة .

قال صاحبى : أتعرف فلاناً ؟ قلت : نعم . قال : إنه كالثعبان يلدغ وهو لين الملمس . ماعرفته مرة واقفاً عند رأى . إنه كالزئبق لاتعرف أين مبدؤه ولامنتهاه !

قلت : لعل نشأته . لعل معهده الذى تلقى فيه التعليم واتاه حظاً من النفاق لم يتح لغيره .

قال : كلا ، إنها الوظيفة توجت كل ما تلقى من مبادئ علم النفاق ، فجعلته حيث هو اليوم . رجل يعرف كيف يصل إلى غايته .

قلت : هل الوظيفة تعلم النفاق ؟

قال : عند أصحاب الاستعداد . إنها تصقله وتنميه ، وتجعله فناً فيه ذوق وعراقة ، له قواعد مفهومة وأصول مدروسة .

قلت : وله أساتذة ؟

قال : ولهم تلاميذ .

قلت : وهل يرضى الأساتذة أن يفضوا بأسرار حرفتهم وفنهم ؟

قال : إنهم لا يفضون بها عادة، ولكن التلاميذ يلتقطونها التقاطاً ، ويستنبطونها استنباطاً . إنها موهبة ومجاراة وتقليد ، والفن كل يوم فى تجديد وتجديد .

قلت : أفادك الله أأستاذ أنت أم تلميذ ؟

قال : لاهذا ولاذاك ، بل متفرج يسجل ويرقب ، ويسأل الله السلامة من الأستاذ والتلميذ !



احترام القضاء

كنت ، ومازلت ، أقيس حضارة بلد من البلاد بميزانين : أولهما مدى احترامها للقضاء ، وثانيهما مدى احترامها للجامعات واستقلالها . فاحترام القضاء يشعر بالإيمان بالعدالة وسيادة القانون . واحترام الجامعات يشعر باحترام الفكر الإنسانى . وكنت أتحدث فى هذا الشأن إلى أستاذ يشغل منصب رئيس للنيابة فقال : اسمع الحكاية الآتية :

فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، أحس أحد القضاة البريطانيين بضجة شديدة تصل إلى قاعة الجلسة ، مبعثها قرب مبنى المحكمة من مطار حربى . وكان المطار فى هذا اليوم دائب الحركة . فالحرب قائمة والمجهود الحربى فى أوجه . واستحال على القاضى أداء عمله ، فأصدر أمراً إدارياً — وهذا من حقه طبقاً للنظام الإنجليزى — للمشرفين على المطار بأن يكفوا عن الضجة ريثما ينتهى من نظر القضايا المعروضة عليه . وتلقى رجال المطار أمر القاضى فى دهشة بالغة ، ولاحظوا أن تنفيذه معناه تعويق المجهود الحربى ، فاستمروا فى عملهم ، ولكنهم أبلغوا الأمر إلى وزير الحرب وإلى رئيس الوزارة . فقال تشرشل : بل يجب أن ينفذ أمر القاضى حتى لا يقال إن قاضياً فى بريطانيا أصدر أمراً وأهمل تنفيذه !

وفى الوقت نفسه ، اتخذت الإجراءات السريعة لإخلاء بيت حاكم المقاطعة ، فانتقل إليه القاضى حيث استأنف عمله فى هدوء ، وعاد المطار إلى الحركة التى كان قد توقف عنها . ولم تستغرق هذه الإجراءات أكثر من ساعة .

وهكذا أمكن التوفيق بين الاحترام الواجب للقضاء ، واستئناف المجهود الحربى . ودل التصرف الذى اتخذ على مدى ما يحسه الشعب والحكومة وكل السلطات من احترام بعيد المدى للقضاء .

أنبياء من الأرض !

على الرغم من كل ما بلغته أمريكا من حضارة ، فإن جبينها لا يزال ملطخاً بعار التميز العنصري ، فإن تبرئة قاتلى الصبى الزنجى الذى نسب إليه أنه أبدى الإعجاب بامرأة بيضاء حادث هزّ ضمير العالم المتحضر هزّاً عنيفاً .

ومن حسن الحظ أن عدداً كبيراً من الأمريكيين أنفسهم ينقمون على مواطنيهم هذه النظرة الهمجية ، ويشعرون بخجل شديد لكل عمل من الأعمال التي تعد اعتداء صارخاً على حقوق الإنسان . وإنه لشيء مؤلم أن يقع فى النصف الثانى من القرن العشرين ما يقع فى الولايات الجنوبية الأمريكية ، حيث يحرم على الزنوج أن يجلسوا أو يأكلوا أو يسافروا كما يفعل البيض . ومالم تتخلص أمريكا من هذا العار ، فإن حضارتها ستظل مشوبة ، ودعوتها للحرية ستظل دعوة تنقصها الأصالة والإخلاص . وفى أمريكا أتباع للمسيح ، عليه السلام ، فلماذا لايسمعون قوله : « ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده . يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه ، والعبد كسيده » وماذا جنى السود حتى يساموا ما يساءون وحتى ينظر إليهم وكأن دمهم حلال لمن يسومه عذاباً ؟ !

إن كثيرين من الأمريكيين متدينون ، وهم يمولون بعثات للتبشير تجوب أواسط أفريقيا وآسيا . . خير من التبشير بين السود ، أن يحموا السود فى أمريكا ، وأن يذودوا عنهم هذا الشر العظيم . لقد تحرك ضمير نواب وشيوخ أمريكيين ، وذهبوا يطالبون النائب العام بالتحقيق فى هذا الحادث الأليم ، وقالوا إن العدالة الأمريكية أصبحت فى خطر ، وأى خطر أعظم من أن يتغير الحكم تبعاً لنوع الضحية ، ونوع المتهم . . .

هل هذه عدالة أو أنها نوع من الإبادة ؟ !

فى أواخر الحرب العالمية الأولى نادى « وودروويلسون » بحق تقرير المصير ، وفى أواخر الحرب العالمية الثانية وضع فرانكلين روزفلت قواعد الحريات الأربع . . لهم أنبياء من السماء ، وأنبياء من الأرض من مواطنيهم ، فلماذا إذن لايعطون مواطنيهم الحرية قبل أن يطلبوها للآخرين ؟



النظام والفوضى

تعبت فى تنظيم وقتى ، ولابد أن الناس جميعاً يتعبون فى التنظيم . ويظهر أن فى الإنسان ميلا غريزيًّا إلى التصرف حسب هواه ، لولا أن تشابك المصالح وكثرة الأعمال توجب التنظيم . فهو حاجة وليس متعة . وهو فرض من الفروض التى تلزمنا بها الحياة الحديثة . ومن المؤكد أن الإنسان فى الغابة لم يكن منظماً . ولعل فكرة النظام نفسها لم تكن قد نبتت فى دماغه .

على أن النظام يتعب فى أول ممارسته، ثم يصبح بالعادة شيئاً ثابتاً فى التصرف والتفكير ، والذين يعرفوننى يبدر إلى أذهانهم أننى منظم ، ولكننى لا أرى أنى كذلك ، ولست أعرف أيهما أصدق : رأيك فى نفسك أم رأى الناس فيك ! ؟

وقد عرفت أشخاصاً منظمين جدًّا فى تفكيرهم ، ولكنهم يعيشون حياتهم اليومية فى فوضى لامثيل لها . وكنت أميل إلى الاعتقاد بأن الإنسان المنظم فى تفكيره لابد أن يكون منظماً فى تصرفه ، ولكن الأمثلة التى أعرفها بدأت تهز هذا الاعتقاد فى نفسى .

وكثيراً ما تساءلت : هل النظام هو الجميل أو الفوضى ؟ وكثيراً ما رأيت الجمال فى النظام كما رأيته فى الفوضى !

الثقافة لاوطن لها

هل للثقافة وطن ؟ وهل ينبغى أن ينشب بين الثقافات المتعددة ما ينشب بين القوميات من خلاف وتناحر وتفاخر ومد وجزر ؟ !

إن الثقافة مظهر للتفكير والسلوك والنظرة للحياة ، وهى تختلف من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى شعب . وهى تتطور فى البلد الواحد من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، فلا بد من الاعتراف بأنها شىء لايكف عن التطور لأنها مظهر للجماعة وهى حتماً فى تطور مستمر .

ثم لابد من الاعتراف أيضاً بأن للثقافات جميعاً جذوراً مشتركة تصدر عن النزعات والانفعالات الإنسانية التى لاتختلف من شعب إلى شعب ولا من عصر إلى عصر ، لأنها بطبيعتها عناصر خالدة تقترن بالإنسان من حيث هو إنسان .

ولا بد من الاعتراف أخيراً بأن الثقافات تداخلت وتشاركت وأخذت بعضها عن البعض الآخر وتأثر بعضها بالبعض الآخر ؛ فهى فى مجموعها كل مشترك يمثل سير التطور الإنسانى ، متفق فى جذوره مختلف فى فروعه .

والاختلاف بينها ليس إلا اختلاف الثمر وليس اختلاف الأصل ، وعلى قدر تذوق الإنسان لهذا الثمر المختلف الألوان والأشكال يكون تعمقه فى فهم التطور الإنسانى وإدراكه لحقيقة التيارات التى حولته إلى هذا الجانب أو ذاك . ولو استطاع كل منا أن يتذوق هذه الثمار جميعاً ولم يفعل ، كان مقصراً أو ضيق التفكير ، وكلاهما صفة لاتجدر بالمثقفين أو كان متعصباً والتعصب قاتل للثقافة .

صفقة إيمان

اعتاد صاحبي أن يصوم رمضان قانتاً مخلصاً ، فعنده أن شرور العام تمحوها عبادة شهر . وعبثاً تحاول أن تثنيه عن فلسفته فهو مؤمن بها. يظل طول العام كأنما هو ملحد لا يؤمن بدين ، فإذا أهلّ رمضان ، فقد استمسك منه بالعروة الوثقى .

إذا رأى المغتابين فرّ منهم ، وإذا ذكر أمامه شخص أمسك لسانه فلم يخض فيه بخير أو شر ، وهو القائل فيه بقية العام ما قاله مالك فى الخمر !

وإذا مرت به الغوانى أغمض عينيه كأنه يستعيذ بالله من الشيطان . وإذا أعطاه أحد المال الحلال استنكر أن يمد يده ، كأنه يهودى فى يوم السبت . وهو فى بقية العام يأخذ الحلال والحرام ، بل لعل شهوته للحرام أشد منها للحلال .

مسبحة أطول من ليل الشتاء، رداء فضفاض وقبقاب لاتراه إلا ساعياً بين صحن المسجد والمحراب ، يبسمل ويتمتم ويحوقل . يكاد ينكر أصدقاء العام كله ، أو قل هم ينكرونه ، فليس منهم إلا جليس الكاس والطاس، رب الغوانى السابحات الفاتنات ، منهم اليهودى الذى يكاد يزرع القرش حتى يثمر ، والمتلاف الذى يرمى القرش ولا يدرى ، والساهر الليل حتى مطلع الفجر أمام موائد القمار كأنها العبادة والصلاة .

سبحان الله ! يالسر رمضان الباتع ! كيف يتحول عن هؤلاء الأصدقاء إلى نوع جديد ، منهم ذو العمامة التى كأن طياتها هرم ، وذو اللحية التى كأن شعراتها صنم ، والفاقه الآيات والأحاديث يتلوها فى قنوت ونغم .

صحبته من أصحاب الجنة ودعاتها ، وأخلاؤه من الواصلين المتصلين الذين بينهم وبين الآخرة أكثر من سبب . أتراه يؤمن فى هذا الشهر حقًّا ، وينسى ما يعيش فيه العام كله من ضلال وغرور ؟

لقد شاقنى أمره ، فسألته تأويل ما يصيبه فى هذا الشهر الكريم من تبتل وتهجد ؟ فقال : إن صوم يوم يمحو ذنوب شهر وصوم شهر يمحو ذنوب دهر !

قلت : أنت على هذا ضمنت الجنة ؟

قال : بشرط أن يكون الذهاب إليها فى رمضان .

قلت : وفى غير رمضان ؟

قال : أذهب بأوزارى . . . وهذه هى مشكلتى . فأنا طول العام أخشى أن يجىء الموت ، أما فى رمضان فلا أخشاه .

قلت : أتم الله عليك نعمة الإيمان ، إنها صفقة لا يخسر فيها إلا الشيطان !



الأشياء البسيطة

الأشياء العظيمة فى الدنيا هى الأشياء البسيطة . أجمل ما فى الدنيا مؤلف من مقطع واحد ، من كلمة واحدة : الحب . الفرخ ، البيت ، الطفل ، الإيمان ، الثقة ، الله .

وأجمل الصور فى الدنيا هى أبسطها . . وأقربها إليك . .

أراد فنان أن يرسم أجمل ما فى الحياة ، فسأل قسيساً فأجاب : الإيمان ، تستطيع أن تحسه فى كل كنيسة .

وسأل الفنان عروساً صغيرة فأجابت : الحب ، الحب يحول الفقر إلى ثروة ، يلطف الدموع ، يجعل من القليل ما يغنى ويفيض .

وأجاب جندى شاب : السلام أجمل ما فى الدنيا ، والحرب أقبح ما فيها . فحيث يوجد السلام ، تجد الجمال .

وسأل الفنان نفسه : الإيمان ، الحب ، السلام ، كيف أرسمها .

ودخل بيته فوجد الإيمان فى أعين أطفاله ، والحب فى عين زوجته ، وأحس بالسلام لأنه ليس إلا الإيمان والحب .

ورسم أجمل صورة فى الدنيا ، وحينما أتمها جعل اسمها « البيت » .

الحياة بسيطة ، ولكن الإنسان يعقدها ، لأنه لا يؤمن ، ولا يحب ، ولا يريد السلام ، الزيغ يجعله قلقاً . والحقد يؤرقه . ثم لا يجنى من الزيغ والحقد إلا الحرب . الحرب بينه وبين زملائه وإخوانه لا بالرصاص والسلاح ولكن بالسعى والكذب والطمع ، وهو بذلك يهيئ وطنه للحرب ضد الأوطان الأخرى .

إن السلام ينبع من شيء بسيط صغير ، من مقطع واحد ، من كلمة واحدة هي الحب . إن أعظم الأشياء فى الدنيا أبسطها ، وهى فى متناول الجميع .

المتفائل والمتشائم

أيهما أحسن : أن تتفاءل أم أن تتشاءم ؟ بعض الناس يجعلون قاعدة حياتهم التفاؤل ، وبعضهم الآخر يؤثرون أن تكون القاعدة التشاؤم . ولكل من الفريقين فلسفته .

المتفائلون يرون أنهم لايخسرون بالتفاؤل ، لأن نظرتهم البيضاء للحياة تجعلهم يعيشون على الأقل فترة معقولة من الوقت فى هدوء أو أحلام عذبة إلى أن يقع الشر ، على حين يعيش المتشائم فى هم دائم وقلق لا آخر له .

والمتشائمون يرون أن النظرة السوداء تنقذهم من خيبة الأمل ، وتساعدهم على الاحتياط توقعاً للأسوأ . إذا كان فى جيب المتشائم مائة جنيه ، شعر أنها ليست أماناً كافياً من غدر الدهر . وإذا أصبح فى جيبه ألف زاد تشاؤمه ، وشعر أنها ليست أماناً كافياً من غدر الدهر . فإذا ارتفع الرقم إلى عشرة آلاف ارتفع معدل التشاؤم ولم يرتفع معدل الأمان . وهكذا يعيش فى هم وحذر وخوف وقلق .

نعم ، إن المتشائم قد لايحتاج إلى الاقتراض . قد يعيش مستور الحال ، وقد يقتنى عمارة أو أطياناً أو أموالا فى البنك ، ولكنه يعيش وكأنه لايملك شيئاً ، ليس فى صدره أمان ، وليس فى وجهه ابتسام ، وليس فى أحلامه سلام . وقد يضطر المتفائل إلى الاقتراض ، وقد يضطرب فى حياته لأن حسابه دائماً مختل ، وآماله قد لاتتحقق ، وما يبنيه بتفاؤله لايحققه الواقع فى كثير من الأحيان ، ولكنه — مع ذلك — يعيش ويشعر بالأمان ، ولو كاذباً ، وبالطمأنينة ولو إلى وقت ، وبالرضاء ولو إلى حين . . . والصدمة عنده قد تضايقه ، ولكنها سرعان ما تذهب لأن التفاؤل يقضى عليها .

ولست أعرف مع ذلك أيهما خير : أن تكون متفائلا أم متشائماً ، ولكنني أعرف في نفسي أن الشيء الذي أتفاءل بنتيجته تجيء على غير ما أرجو ، والشيء الذي أتشاءم منه تجيء نتيجته خيراً بكثير مما قدرت . ولذلك اعتدت كلما شعرت بالتفاؤل الشديد أن أحوله جهد استطاعتي إلى تشاؤم ، عسى أن تحمد النتيجة .

إنها خرافة من غير شك ، ولكننا محتاجون أحياناً إلى خرافات !



جرائم المرأة

نفذ حكم الإعدام فى مسز « روث أليس » البالغة من العمر ٢٨ عاماً لأنها قتلت صديقها فى عيد الفصح الماضى بسبب هجره إياها وتخليه عنها .

وقد حاولت الصحافة البريطانية أن تلغى تنفيذ الحكم ولكنها لم توفق . وحاول الرأى العام البريطانى ، وبخاصة النساء ، أن ينقذوا الشقراء الجميلة من حبل المشنقة ، ولكن جهودهم ذهبت عبثاً . أما هى فلم تأبه للأمر . كانت راغبة فى الموت . وقد اعترفت بجريمتها فى هدوء ، وقالت إنها قتلت الرجل عامدة وهى فى كامل وعيها وأضافت أنها ليست نادمة على ما فعلت .

وقد علق أحد الكتاب البريطانيين على تنفيذ الحكم بقوله : « إن السرية التى أحيط بها التنفيذ تدل على أننا إذا كنا قد فقدنا الرحمة فلا تزال فينا بقية من حياء » !

وانتهزت الصحف البريطانية الفرصة فطالبت بإلغاء عقوبة الإعدام وقالت إنها عقوبة موصومة بالوحشية . وتصحيح الخطأ فيها غير ممكن . ثم هى قضاء على النفس الإنسانية دون مسوّغ . وإذا كان المجرم لا يرجى إصلاحه فينبغى عزله عن المجتمع . أما ممارسة القسوة على هذه الصورة ففضلا عن أنها عمل وحشى ، فإنها دليل على عجز المجتمع عن إصلاح المجرم .

ولم يبحث أحد فى الجانب الآخر من الموضوع ، وهو إقدام النساء على ارتكاب أفظع الجرائم بأعصاب هادئة . ونحن فى مصر نكاد نلمح هذه الظاهرة فيما تنشره الصحف أحياناً من حوادث . . . ما تفسيرها

إذن ؟ . . . تفسيرها أن المرأة مخلوق عاطفى . وهى تعيش فى قلبها أكثر مما تعيش فى عقلها . والحياة بالنسبة لها نبض قلب وليست وعى عقل .

وأكثر الجرائم التى تقدم عليها هى الجرائم المتعلقة بالعاطفة والأنوثة والهجر والحقد على منافستها فى الرجل الذى تحبه . وحيث تكون المتهمة امرأة ، ويعرض الأمر على المحلفين فى البلاد التى تأخذ بهذا النظام يؤثرون غالباً العفو عنها تقديراً لانفعالاتها . وما العطف الذى حظيت به مسزروث أليس إلا نوعاً من حكم الرأى العام لمصلحة المرأة . فهو لاينظر إلى بشاعة الجريمة بمقدار ما ينظر إلى ظروف المتهمة .

ولكن الرأى المعارض يقول إن منح المرأة العطف على هذه الصورة يجعلها أكثر استجابة لعواطفها ونزواتها . ومن ثم نادى أصحابه بكف المحلفين عن نظر هذه القضايا .



أرض تجود بالذهب

قضيت فى الريف ليلة وبعض يوم ، ورأيت الفرق الكبير الشنيع وأنا أترك القاهرة الجميلة الأنيقة ، لكى أرى الأكواخ القديمة المهلهلة ، ميراث القرون الغابرة ، التى ظلت كما هى منذ كانت فى عهد قدماء المصريين والغزاة الفاتحين من الفرس والرومان والأتراك ، كأنها بعض الزمن ، أو جزء منه لايتغير ولايتحرك ، وإن كان الزمن نفسه يتغيّر ويتحرك .

لقد أخذ الوعى فى الريف ينتشر ، ولكن الجَهْد المطلوب لايزال ضخماً . ونحن لانستطيع أن نزعم أننا شعب راق متحضر ، وثلاثة أرباع المصريين يعيشون فى بيوت كأوجار الكلاب . إننا فى حاجة إلى قوة العمالقة ، كى ننقذ مواطنينا من الجهل والفقر والقذارة والخرافات .

وكنت وأنا أتعثر فى طرقات الريف بين مطبات ترتفع وتنخفض ومسالك تضيق وتتسع ، وقرى على الجانبين تعلن عن فقرها وبؤسها ، بعشرات الأطفال أشباه العرايا يستقبلون كل قادم ويودعون كل ذاهب . كنت وأنا أرى الريف الجميل بخضرته اليانعة وكنوزه المخبوءة ، وأرضه التى كأنها الذهب ، أقارن بينه وبين الريف فى فرنسا ، وقد جبت قراه فى الجنوب ورأيت جمال الطبيعة كيف تزيده جمالا صنعة الإنسان ، أسائل نفسى متى نبلغ بريفنا هذا المبلغ ؟ متى نشعر ونحن نترك المدينة إلى الريف ، أننا لانترك جزءاً من وطن لاصلة له بالجزء الآخر . فمن يستطيع أن يقول إن القاهرة الرقيقة الجميلة العظيمة بقصورها وشوارعها وأضوائها هى عاصمة لهذه المجموعة المتنافرة الفقيرة التعسة من القرى !

ومن حسن الحظ أن الزمن الذى كان كل جهدنا فيه منصرفاً إلى المدينة قد انتهى ، وأخذنا نلتفت إلى القرى والريف والفلاحين والمزارعين والمؤجرين والملاك ، إلى كل من يشترك بجهد قليل أو كثير فى إنبات الذهب فى أرض تجود بخير ما فيها ، وكم فيها من خير !



الجنة

قال له صاحبه : طويت آلاف الأميال فى الدنيا طولا وعرضاً ، فلم أر أن الإنسان يختلف من مكان إلى مكان . . صراع لايتوقف ، مشكلات ، مشاحنات ، جرائم ، دنيا تدور محلقة فى فضاء ، كل الناس يشكون ، لا شيء يعجبهم .

قال : وماذا كنت تظن أن ترى ؟ . .

— كنت أبحث عن الفردوس المفقود، عن جنة عدن ، طفت بالدنيا كلها تقريباً ، فلم أجد فردوساً ولاجنة . . .

— الفردوس والجنة فى داخلك . . .

— عدت إلى فلسفتك القديمة ! لا أرى الجنة إلا مكاناً !

قال : ستتعب إذن حتى تحفى منك القدمان ، ولن ترى الجنة . .

سأل : ألا يستطيع الإنسان أن يصنعها ؟ . .

— صنعها على الورق . . أفلاطون وتوماس مور . . خيالات كتاب وفلاسفة ! وبناها الملوك والأمراء قصوراً وحدائق وطرقات وأزهاراً ذات أريج ، ولم يعثروا على ما كانوا يرجون من سعادة وطمأنينة وراحة بال . . بعضهم انتحر فى قصره . . . وبعضهم قتل فى جنته . ليست الجنة مكاناً يا صاحبى . .

— وماذا تكون إذن ؟

— أن تكون على وفاق مع نفسك ومع الناس . . أن تحبهم ويحبوك . .

— أحببتهم فلم أر منهم إلا الأذى والنكران . .

— لأنك أحببتهم وانتظرت الجزاء . .

— إن المعاوضة بعض نواميس الحياة .

ــ سألتنى عن الجنة ولم تسأل عن الحياة .

ــ وما هى الحياة ؟

ــ أخذ وعطاء .

ــ وما هى الجنة . . ؟

ــ عطاء مبارك من السماء !



الفوضى والنظام

ربما لا يصدق إنسان أن بيروت مدينة ليس لشوارعها أسماء، وليس لبيوتها وعماراتها أرقام : وهى مع ذلك مدينة كبيرة يقرب عدد سكانها من ثلاثة أرباع المليون ، وتعد من مراكز التجارة المهمة فى الشرق الأوسط ، وهى ميناء ضخم مشهور ، وبها مطار دولى يستقبل الطائرات من كل جنس ومكان ، فمن الغريب أن تظل مدينة كبيرة كهذه المدينة تخبط فى ليل الفوضى . فوضى الشوارع التى تميزها عمارة قديمة أو بنك مشهور أو رجل له نفوذ واسم .

وساعى البريد هناك فدائى أو رجل « نابه زارق » إذا استطاع أن يوصل لك خطاباً ، وجب أن تمنحه منحة مناسبة للعمل المجيد الذى قام به . ولكن يعوض هذا أن أهل بيروت يعرفون مدينتهم شبراً شبراً ، وسائقوها يمرقون فى الشوراع الصغيرة والكبيرة والمنحدرة والمرتفعة ، ويلفون ويستقيمون وينحرفون ويعتدلون ، فإذا بك بعد قليل فى المكان الذى تقصده .

وقد فكروا يوماً فى وضع أرقام للمنازل والبيوت والعمارات ، ووضع أسماء للشوارع ولكنهم عدلوا عن الفكرة ووجدوا أن هذه الفوضى لم يشك منها أحد ، لماذا النظام إذن ؟ !

وعندنا فى المدن الصغيرة والكبيرة أسماء وأرقام ، ومع ذلك يتعثر الخطاب أربعة أيام ، ثم يصل إليك الخطاب الذى كان ينبغى أن يصل إلى شخص آخر فى « بين الصورين » والمسافة بينك وبينه لاتقل عن ساعتين بالسيارة واسمك يختلف عن اسمه اختلاف ما بين السماء والأرض .

العبرة إذن ليست بالنظام ولكن بالأشخاص الذين يطبقون النظام . وكثيراً ما تقول النظم إنك حر من كل قيد ، فإذا جربتها عند التطبيق وجدت القيود تحيط بك من كل جانب . وعلى العكس من ذلك تكون النظم أحياناً قاسية فى مظهرها ، ولكن الأشخاص الذين يطبقونها يجعلونها رحيمة رقيقة هى والحرية سواء .

لقد علمتنى فوضى بيروت ، أن النظام معنى وليس رسوماً مكتوبة وقرارات مرصودة ، وأن الحرية قادرة أن تصحح نفسها بنفسها إذا عرف كل مواطن أين تنتهى حريته لكى تبدأ حرية غيره .

وقد سمعت لبنانياً يقول لسائق سيارة : لا تمش من هذا الطريق. فسأل السائق : ولماذا ؟ أجاب الرجل : الحكومة أصدرت أمراً بذلك ؟

قال السائق : هى الحكومة كل ما تطلع أمر نسمعه ؟ !

وضحكت من جواب السائق ، ولكننى تدبرته ، فقد كان له مغزاه !



النظر والتجربة

سألنى شاب : ما هو شرط النجاح فى الحياة ؟ . .

قلت : أن تفهم الحياة . .

سأل : وكيف يكون فهم الحياة . .

قلت : بأن تخطئ وتصيب : بالممارسة والمعاناة . .

قال : وتجربة الآخرين ؟

قلت : بعض الوسيلة لفهم الحياة، غير أنها وحدها كالكتب تعطى إشارات المرور ، ولكنك لن تفهم الطريق إلا إذا سرت فيه وأدركت وعورته أو رقته ، صلابته أو ليونته . .

سأل : شبهت تجربة الآخرين بالكتب ، فهل تعنى حقيقة المشابهة أو تعنى المجاز ؟

قلت : بل أعنى حقيقة المشابهة ، إن الكتاب ليس إلا تجربة تروى، وبمقدار الصدمة فى التجربة والرواية يكون الأثر أفعل وأنجح . .

قال : خرجت من الجامعة بدرجة التفوق، وأرانى حائراً وأنا على شط الحياة ، كأنما كل ما درست كان شيئاً بعيداً عن الحياة . .

قلت : كلا ، لم يكن بعيداً عن الحياة ، إنه فى صميمها ، ولكن النظر شيء والواقع شيء آخر . . إذا تعلمت أصول العوم نظرياً ، فهل تستطيع أن تخوض البحر من غير تجربة عملية . . وكذلك العلم فى الجامعة والحياة ، وكذلك الكتب والنظريات إزاء التطبيق والممارسة .

سأل : معنى هذا أنك تفضل التجربة والممارسة على النظر والقراءة ؟

أجبت : كلا ، كلاهما لا بد منه .

النظر والقراءة يعمقان الفهم ويعطيان الدليل . والممارسة تشق الطريق . وقد نجح البعض من غير نظر وقراءة بممارسة ذكية وتجربة نافعة ، ولكن الذين قرءوا ونظروا حققوا نجاحاً أعمق وأدوم ، وكانت التجربة والممارسة بالنسبة لهم أسخى وأشمل .



لا شيء ثابت !

قال له صاحبه : أرأيت إلى ناس يقولون ولايفعلون ، وناس يفعلون لا يقولون، وناس لايقولون ولايفعلون ؟.. هل ترى إلى جانب هؤلاء أصنافاً أخرى من الناس ؟

قال : جمعت فشملت ، فليس الناس إلا أحد هؤلاء الثلاثة ، والعبرة بالقول أى قول ، وبالفعل أى فعل . فمن القول السخف ، ومنه الكذب ، ومنه النفاق والادعاء ، ومنه التفاخر والمباهاة والتعالى ، ومنه الصدق والإيمان والعزم . ومن الفعل الشر والدس والنميمة والتفرقة والهدم ، ومنه البناء والتعمير ، والخير والتعاون والمصالحة والسلام ، منه الإيجاب والسلب .

قال صاحبه : وسعت الدائرة وكنت أريدها ضيقة . . . إنما أردت أن أسأل أى الثلاثة ينبغى أن يكون الإنسان ؟

قال : أما الذى لايقول ولايفعل فزائد فى العدد ، لا خير منه ولا شر . . . وقديماً قيل إذا لم تستطع أن تنفع فضر .

قال صاحبه : هل ترى أن الذى يفعل ويضر خير من الذى لا ينفع ولا يضر ؟

– لم أقصد هذا ولم يقصده أصحاب المثل السائر ، ولكنهم أرادوا أن يحثوا على العمل وينفروا من الجمود ، فبالغوا حتى جعلوا الذى يعمل وفى عمله ضرر خير من القاعد الذى لايعمل شيئاً .

قال : عرفت فلاناً هذا لاينطق بكلمة ولايفصح عن رأى ولايقوم بعمل ولاينهض بواجب ، فإذا جادلته تمثل بقول الشاعر :

ما أطيب العيش لو كان الفتى حجراً ‏ ‏ تنبو الحوادث عنه وهو ملموم !

– وكيف يطيب العيش لحجر ؟ أتراه يحس خيراً أو شراً ؟ أتراه يعيش . . . إن هذا الشاعر « تنبل » وقد انقضى عصر « التنابلة » . . . اعرف يا صاحبي أن لكل عصر مثله وأخلاقياته وفلسفته .

سأل : هل تعنى أن الإنسان يتغير ؟

– هذه بديهية من بديهيات الحياة .

– ولكن هل تتغير المثل والأخلاقيات بتغير العصور والناس ؟

– ما دامت العصور والناس يتغيرون فلا بد من تغير مماثل فى كل شىء

– تعنى أنه لاشىء ثابت فى الحياة .

– الأرض تدور وتتحرك ، الأفلاك تدور وتتحرك . . . الكون كله فى حركة دائبة مستمرة فى كل لحظة ودقيقة . . . الإنسان الجامد يضمر ، والعقل الجامد يركد ، الروح الجامد يموت . . . حاذر أن تؤمن بشىء آخر غير التطور فإنه سنة الحياة !



الصلاة والصمت

تخيرت لى صلاة فى هذا الشهر ، والصلاة لاتكون بالركوع والسجود فحسب ، ولكنها تكون بالكلمة خارجة من فؤاد صاف ونفس شفافة ، صاعدة إلى السماء ابتهالا أو توسلا ، ذاهبة صدى ومرتدة ترنماً . . وهى فى الفجر ، ونوره ينبثق من الليل ، عبادة لله والكون ، وحباً للناس والأشياء ، وفناء فى الوجود ، وصبراً على المكروه . . هى نوع من الشعاع الخفى ينتشر بين الأرض والسماء ، فيجمع بين التراب والنور ، بين الخطيئة والمغفرة ، بين الفناء والخلود .

ومن الصلاة ما لاتكون الكلمة فيها ولايكون الصوت ، تكون بالصمت . . أوَلا تصلى هذه الخلائق الصامتة وتبتهل ؟ . . تأمل الشجر والزهر والماء والسحاب والأفق والنجوم الذابلة ! . . هى صامتة حقاً ، ولكن فى صمتها تسمع التسبيح ، وإنه لأقرب إلى السماء من الصراخ والضجيج . . والتأمل نفسه عبادة وصلاة . المريض الذى لايقوى حتى على الكلام والحركة ، ألا يصلى بقلبه ونفسه وروحه وكل جارحة فيه ، أليست صلاته أقرب إلى السماء من كل صلاة ؟

تأمل الفجر ، تقرأ فيه حكمة الوجود وحكمة الصلاة وحكمة الصمت ، بل إنك لتحس أن الكلام يفسده ، وأن الروعة التى ينشرها حولك وفى داخلك أعظم تعبيراً من كل صوت ومن كل صلاة . . إذا أصابك الصدأ وذبل الحب وذبلت الحياة فى نفسك ، فانتظر حتى يطلع الفجر ، وأنت ترى كيف تتجدد الحياة ، وكيف ينفلق النور من الظلام وكيف يولد النهار الصاخب اللاجب من أحشاء الظلام الصامت !

لا وجود لهما

القراءة الثانية ضرورية للأعمال الجيدة الجادة والعميقة . القراءة الأولى تفتح الباب وتشير إلى البهارج والزخارف التي تخطف البصر وتأسر القلب .. والقراءة الثانية تفتح الباب على الكنوز الخفية وراء المظهر الجميل ، إنها قراءة التأنى والتأمل ، قراءة العقل الذى يستوعب ما وراء اللفظ ، ويحاول أن يستشف ما يريده الكاتب ، وهى فى عبارة موجزة قراءة الاندماج فى المصدر ، فى العقل والوجدان والشعور الذى نما فيها العمل واستوى خلقاً كاملا .

وقد تكون القراءة الأولى فى سن الشباب الباكر ، وتجيء القراءة الثانية فى سن النضج . افعل هذا وسترى كم من الأشياء كانت خافية عنك ، وكم استطعت فى سن النضج أن تراها وتكتشفها ، سترى كم ظلمت الكاتب فى أول قراءة ، وكم أمتعك واستحوذ عليك فى القراءة الثانية ! كم كان بعيداً عنك فى المرحلة الأولى ، وكم اقترب منك وامتزج بك فى المرحلة الثانية !

إنها ليست الكتب والكتاب والمؤلفون هم الذين تصدق عليهم القراءة الأولى العاجلة والقراءة الثانية المتأملة المتأنية ، ولكنها أيضاً الأعمال والواجبات والأخبار والأفكار والتطورات والأمانى والتطلعات وكل ما تضطرب به الدنيا من شئون . . . إنها جميعاً عرضة للنظرة الأولى المتعجلة تصل بك إلى مواقف ومواقع معينة ، فإذا أنعمت النظر مرة أخرى ، وتأملت فى تريث يجمع أشتات الشيء أو الشكل أو الموضوع فأنت فى موقف آخر وموضع آخر ، يختلف عن الأول اختلافاً كبيراً

وربما كان موقفاً أو موضعاً مغايراً تمام المغايرة لما اخترته عند النظرة الأولى .

لا تعتمد على القراءة الأولى ولا الرأى الأول لكى تحدد موقفك النهائى . لا بد من قراءة أخرى ونظرة أخرى ومراجعة للرأى ، وسترى أنك أقرب إلى الحق والصواب . . . قلت « أقرب » ولم أقل إنه الحق والصواب ، لأن كليهما نسبى ،وكلما أجهدت نفسك اقتربت شيئاً فشيئاً منهما ، ولكنك لن تبلغهما ، فهما بحكم طبيعة الأشياء متغيران من وقت إلى وقت ، ومن جيل إلى جيل ، ومن عقل إلى عقل . . . إن الحق المطلق والصواب المطلق لا وجود لهما .



المتسلق والأصيل

من النباتات المتسلق ، ومنها الأصيل . الأول يرتفع أكثر من قامته : والثانى لايتحل غير قامته . ومن الناس المتسلق يرتفع أكثر من قامته اعتماداً على الآخرين، ومنهم الأصيل الذى لايعيش إلا بقيمته الذاتية . الأول قد ينحدر من ارتفاعه فى لحة إذا تخلى عنه الآخرون وتركوه إلى كفايته وقدرته ، والثانى لايمكن أن ينحدر من موقعه إلا إذا قصر أو أهمل أوتغافل عن تنمية مواهبه واستعداداته . . . الأول لافضل له فى ارتفاعه وانخفاضه فهو طفيلى ، والثانى مسئول مسئولية كاملة عن ارتفاعه وانخفاضه . . . الأول لايملك نفسه ولامصيره ، والثانى مالك لنفسه ولمصيره

وسألنى : أيهما أفضل المتسلق أم الأصيل ؟

قلت : الأصيل حتماً لأنه يتقدم بثبات ، ولايغتال حق أحد ، ولايرتفع على حساب أحد .

ــ ولكنه يشقى بالعمل والجهد ، والثانى لايشقى بعمل أو جهد ومع ذلك قد يبلغ من الرقى والدرجة والمرتب والمكانة ما لا يبلغه الأول .

قلت : لاعليك، العبرة بالنتيجة فى المدى الطويل... أرأيت إلى الشهب والنيازك فى السماء تومض لحة ثم تتحول إلى رماد . أوَ رأيت إلى النجوم الثابتة فى السماء أقل لمعاناً ولكنها أثبت مقاماً . . . وانظر إلى النبات المتسلق على جدار أو شجرة ، لو انهد الجدار أو قطعت الشجرة فلا مجال له إلا الأرض يسبح عليها لأنه فى مستواها . . . وانظر إلى الشجرة الثابتة ترتفع أقل مما يرتفع النبات المتسلق ، ولكنها تستند فى وجودها إلى أرض صلبة . . . لايخدعك يا أخى البرق الخالب ولا اللمعان الطارئ !

المثقف والمتعلم

سألني السائل ما هو الفرق بين المثقف والمتعلم ، والجواب أن الثقافة أعم وأرحب من التعليم . وكل مثقف لا بد أن يكون متعلماً بصورة أو أخرى ، ولكن كل متعلم ليس من المحتم أن يكون مثقفاً .

وهناك عدد كبير من المتعلمين لايعدون مثقفين لأنهم لايمدون تفكيرهم إلى أبعد من تخصصهم أو لايتفاعلون مع ما تعلموا فلا ينأى بهم عن النظرة الضيقة المتعصبة سواء كانت ديناً أو قومية أو جنساً أو لوناً .

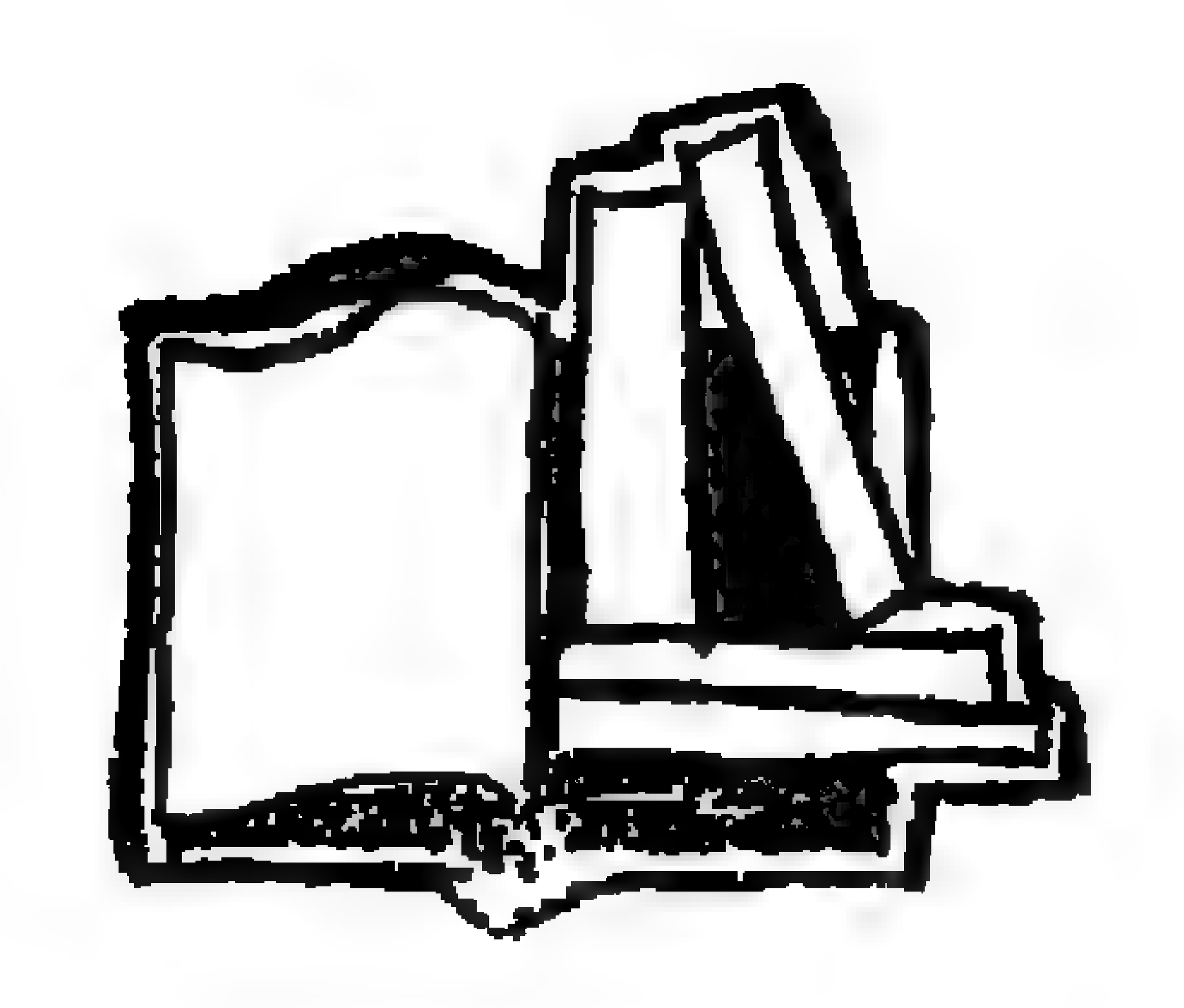
والتعليم وحده لايجعل الإنسان مثقفاً ، ولكن الذى يجعله كذلك إحساسه بالانتماء إلى الإنسانية فى أصفى منابعها الأولى ، واعتناقه مذهبها . فالمثقف ينفر بطبعه من العنف والظلم والاستغلال والاستعلاء ، ويدعو إلى الإخاء والحرية والمحبة والتسامح والمساواة ، بحسبانها مطالب إنسانية طبيعية ، وأن كل ما دخل عليها إنما صنعه الناس التماساً للامتياز أو الاستغلال أو التملك والاستحواذ .

المثقف مثلا يدين المعتدين فى حرب فيتنام وحرب الشرق الأوسط ، لأنه يدين الاعتداء أيًّا كان ويقدس حرية الإنسان أيًّا كانت صلته به ، قريبة أو بعيدة ، أو لا صلة على الإطلاق ، لأن الصلة المقصودة فى ذهن المثقف هى الصلة القائمة على الانتماء إلى الجنس البشرى ، ولك أن تفسر طبقاً لهذه القاعدة لماذا طالب المثقفون فى أنحاء الأرض بإنهاء حرب فيتنام . وكثيرون منهم لايعرفونها ولا تربطهم بها أية صلة مادية من الصلات التى تحرك الناس عادة إلى اتخاذ موقف من المواقف ، وأن تفسر أيضاً لماذا يطالب المثقفون بإدانة الصهيونية ، ولماذا يتخذون منها الموقف الذى يتخذونه !

وهم على استعداد أن يدينوا أى عدوان أو أى تدخل فى حرية البشر ، سواء أكانت هذه الحرية سياسة أم اقتصادية أم اجتماعية .

وقد قلت إن المثقف لابد أن يكون متعلماً بصورة أو بأخرى ، وقصدت بهذا التعبير أنه ليس من المحتم أن يكون تعلمه منهجياً فى مدرسة أو جامعة ، بل ليس من المحتم أن يقرأ ويكتب ، يكفى أن يحصل على معلومات كافية تؤهله أن يبلغ بأفق تفكيره مرتبة المعرفة لما يجرى فى وطنه وفى العالم ، وأن يرتبط بصورة أو أخرى بالقواعد الأساسية الإنسانية التى تجعل الإنسان إنساناً . . .

وقد عرفت بعض من لايقرءون ولايكتبون أو يقرءون ويكتبون بصورة تجعلهم أقرب إلى الأميين . ومع ذلك سمعت منهم آراء ومطالب وتطلعات . وأدركت فيهم فهماً هو فهم المثقف ومنهجاً هو منهجه .



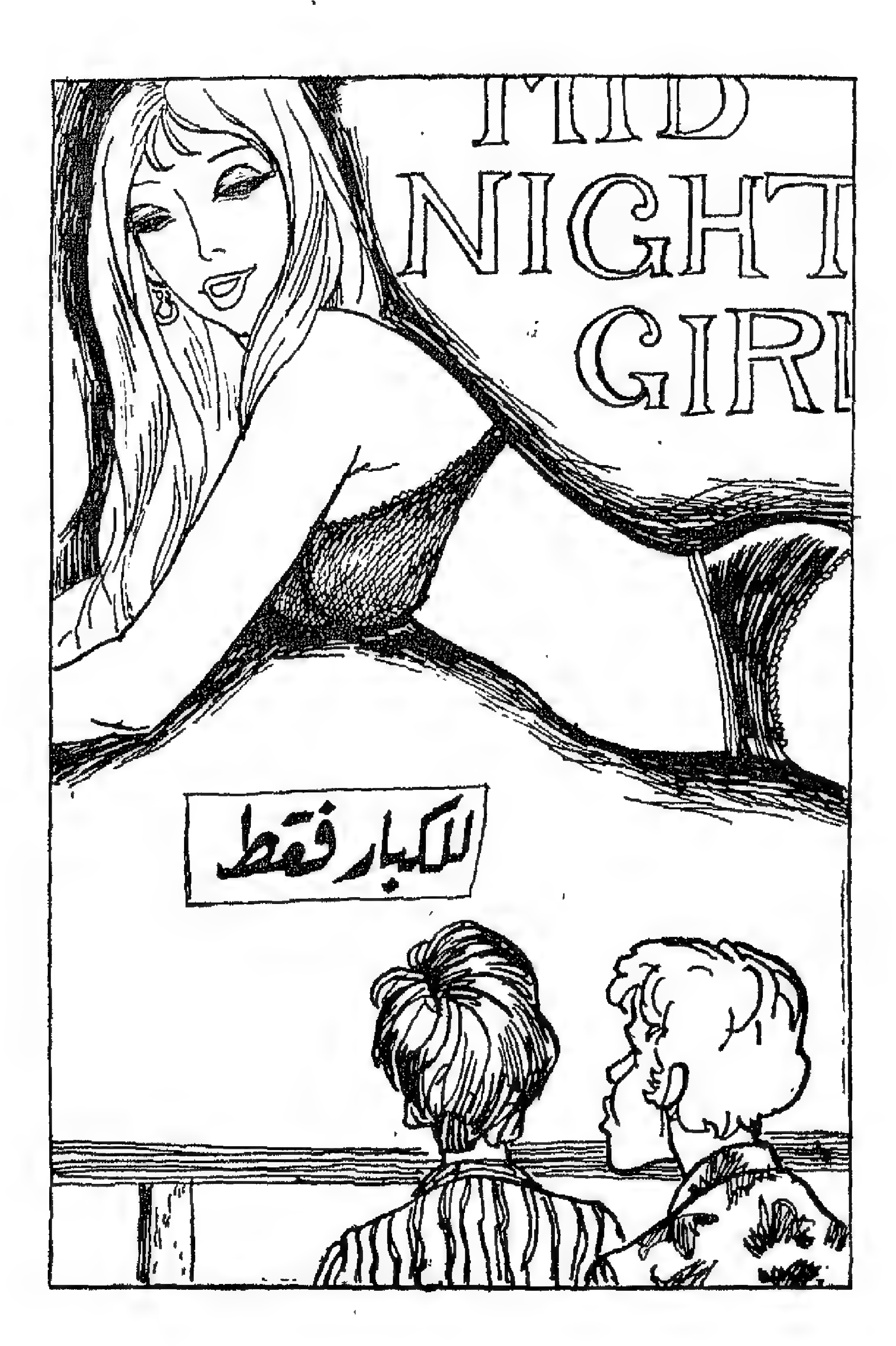
أفلام الجنس

كثرت أفلام الجنس كثرة غير عادية . والجنس حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية ، ولكنه ليس الحقيقة الوحيدة ، كما أنه ليس أهم الحقائق ، ثم إن الإسراف فيه غير مأمون العاقبة ، وهو مسلك يجر إلى الانحراف بالتشبه أو التأثر أو التقليد .

ولا بأس بمعالجة مشكلات الجنس فى الأفلام والمسرحيات والكتب ، ولكن المهم هو أساوب المعالجة ، فن الأساليب ما يجعل مشكلات الجنس جديرة بالبحث والتأمل والتسامى ، ومن الأساليب ما يجعلها سبباً للإثارة وخدش الحياء وإغواء الشباب وهدم القيم وكسر الحواجز ، ودفع المجتمع إلى صورة من الانحلال والفوضى .

ومن حسن الحظ أن مجتمعنا لايزال سليماً قائماً على تقاليد صلبة وقيم فاضلة ، وهو على الجملة أفضل من كثير من المجتمعات ، والأسرة عندنا لاتزال متماسكة قوية مسيطرة بمثلها وقيمها ، ولاخوف عليها من الانحدار والتدهور ، ولكن الإسراف فى عرض أفلام الجنس ، وبخاصة هذه التى لايحتاج مضمونها إلى الفضائح أو ليست الفضائح عنصراً جوهرياً فيها ، يلفت نظر المشاهدين عن الموضوع — إذا كان هناك موضوع — أو عن الفكرة — إذا كانت هناك فكرة — إلى الإطار الفاضح الذى تعرض فيه ، فلا يثبت فى ذهن المشاهد سواء كان شاباً أو رجلا ناضجاً إلا هذا العرض المبالغ فيه لمباذل الجنس .

وإنى لأعرف أن فى أوربا وأمريكا موجة حادة تدعو إلى معالجة الجنس بحسبانه عنصراً هاماً من عناصر الوجود الإنسانى ، ولكننى أعرف أيضاً أن جمهرة المفكرين والمثقفين فى هذه البلاد تشكو من


NIGHT
GIRL
للكبار فقط

الإسراف والإسفاف . . . . لا اعتراض من أحد على معالجة جادة ، ولكن الاعتراض يرد على ادعاء المعالجة أوجعلها مدخلا للغرض الأساسى وهو ملء الفيلم بمناظر فاضحة جرياً وراء الكسب أو إغراء الناس ، وبخاصة الشباب ، على الإقبال ، ثم جمع الأموال بعد ذلك .

وما أحسب إلا أننا ، بتقاليدنا وشخصيتنا ومثلنا وعراقة فهمنا للمجتمع والقواعد التى يبنى عليها والحرص على أن تكون مصونة ومحترمة ، رافضون هذا النوع من الأفلام مهما تكن الحجج المسوّغة لعرضها .



الواقع يسبق الخيال

قال له صاحبه : أهو الواقع أم الخيال الذى يجب أن يقود الإنسان فى الحياة . .

قال : الواقع أولا ثم الخيال .

سأل : ولماذا قدمت الواقع ؟

ـ لأنه هو وحده الذى يثبت قدمك على الأرض ويجعلك تندمج فى الناس والمجتمعات والمشكلات ، ويجعلك تعيش حياتك وعصرك ، تشارك فيه وتؤدى واجبك وتنفع نفسك والناس .

ـ ولكن الواقع فى كثير من الأحيان تشوبه تصرفات وأعمال وانتقاضات لاتتفق مع المثل العليا .

قال : المثل العليا هى الهدف الأعلى الذى يجب أن يكون السير نحوه والحرص على تحقيقه جهد المستطاع . .

ـ ولكن قلما تجد فى الناس من يؤمن بالمثل العليا .

ـ هذا نظر سطحى محض . وتأمل سير التاريخ والمجتمعات ، وتأمل ما حققته البشرية منذ وجدت حتى الآن ، تر أنها تسير على الدوام نحو الأفضل ، تحاول بلوغ المثل العليا . . تذكر عصور الاستعباد والاستغلال والإقطاع ، تصور كيف كان الإنسان فى العصور القديمة وكيف هو الآن ، وهل كان هذا ممكناً أن يقع ، لولا دوافع عامة وشاملة فى الإنسان والمجتمعات لكى يسير نحو المثل العليا . .

سأله : وهل تبلغها البشرية ويبلغها الإنسان ؟

ـ الواضح من استقراء التاريخ والمجتمعات ومن استقراء حياة الإنسان الخاصة والعامة أنه يسير نحو الأفضل . . أما هل يبلغ به هذا الأفضل المثل

العليا أو يقصر دونها فأمر لا يمكن القطع به . . حسبه أن يسير على هداها وهذا هو الخير المنتظر . ليس صحيحاً إذن أن القلة هى التى تؤمن بالمثل العليا ، الصحيح أنها الكثرة . .

— يبدو أنك متفائل !

أجاب : متفائل بأدلة وشواهد وواقع على المدى الطويل . إن ما يفسد الحكم عادة أن يقتصر النظر على نطاق ضيق وعلى وقت معين . . إن الحياة ممدودة ، والتاريخ لا حد له ولا نهاية ، وكذلك السير والتطور إلى الأفضل .



القراءة الجادة

يتوهج التفكير بالقراءة الجادة العميقة ، ويركد بالقراءة السطحية الهشة ، ونحن فى حاجة إلى تنمية الرغبة فى القراءة الجادة والقدرة عليها ، فقد طالما أسرفنا فى القراءة السطحية الهشة فجعلت أحكامنا على الأمور وانفعالاتنا بها هشة وسطحية .والقراءة الجادة تتطلب المعاناة والفهم . ولابد لأخذ الحياة مأخذ الجد والتطور والتقدم أن تزيد حصيلتنا من القراءة الجادة ، أعنى أن تزيد حصيلتنا من التفكير المتوهج . والتفكير المتوهج هو التفكير المتطور الذى لا يربط النفس بالجمود ولكن يدفع بها إلى الحركة .

والقراءة الجادة تتطلب الكتب الجادة ، فلا فائدة إذا وجدت الرغبة ولم توجد الوسيلة . وما يقال عن القراءة يقال عن الأفلام والمسرح والأدب والفن . والذى ألمحه ويلمحه كثيرون غيرى أننا نسرف فى السطحية ونناى عن العمق والفهم والإدراك السليم . ولاعبرة بما يقال من أن الجمهور يريد السطحية أو الهش من التفكير والتصور والتعبير ، فهو قول العاجزين أو قول الذين لايريدون أن يبذلوا الجهد ويتحملوا آثار المعاناة ، ثم إنه لايطلب منا أن نعطى الجمهور ما يريد ، لكن يطلب منا أن نعطيه ما نعتقد أنه الوسيلة لرفع تفكيره وصهر ملكاته وحمله على أن يبذل بعض الجهد ، أو كل الجهد فى التذوق . . . والشعوب لا تتقدم بالكسل والحياة السهلة ، والتذوق السطحى ، ولكنها تتقدم بإعمال الفكر والمعاناة وطلب الصعب والتضحية فى سبيله — وقد انحدرت حضارات كانت مزدهرة بالتراخى والإهمال والركون إلى حياة الدعة وطلب اللذات ، وازدهرت شعوب وملكت السيادة والسلطان

بالمشقة والصبر على المكاره ومعالجة التطلع إلى المراتب الأعلى .

ولست أريد أن أخص شيئاً ، أو أشير إلى مظاهر التراخي والإهمال وإيثار السير السهل فى حياتنا ، وحسبي أن أنبه إلى ما ينبغى أن يكون ، والأمر بعد ذلك موكول إلى من بيدهم الأمر .



العقل الفارغ

الفراغ فى العقل يعنى الصخب والضجيج فى الحديث والنقاش والتفكير والتصرف . فإذا رأيت إنساناً يسرف فى الحديث ويسرف فى الضجيج ويسرف فى إصدار الأحكام القطعية فاعرف أن عقله فارغ ، وإذا رأيت إنساناً آخر لايتكلم إلا بمقدار ، ولا يصدر حكماً ، قطعيًّا إلا بعد بحث ودراسة وتأمل ، بل يكف عن إصدار الأحكام القطعية إطلاقاً ، فاعرف أنه إنسان أوتى من المعرفة والتعقل والفهم قدراً كبيراً ؛ واعرف أنه إنسان يؤثر أن يعرف لقدمه قبل الخطو موقعها .

وطالما تمنيت أن يكون العقل والبحث والدرس ملاك تصرفنا ، إذا تصرفنا ، وملاك قولنا إذا قلنا ، وملاك حكمنا إذا أصدرنا حكماً من الأحكام ، وطالما تمنيت أن نخرج بذلك من مرحلة العاطفة المتأججة من غير طريق أو حل أو درس أو فهم إلى مرحلة العقل التى ترسم الطريق وتلتمس الحل .. التى تفكر كثيراً ولاتتكلم إلا قليلا .. كل شىء عندها بالتخطيط والدراسة وليس بالتهويش والضجيج والصخب .

والذى يراقب حياتنا العامة والخاصة يلاحظ أننا منذ أمد طويل نسير فى الطريق إلى مرحلة العقل ، والعقل هو العلم والمعرفة . فنحن فى حياتنا الاقتصادية نتبع التخطيط ، وفى كل فروع الإصلاح نؤثر الدراسة والفهم ، وفى حياتنا السياسية لم نعد نعتمد على التحمس والعاطفة ، بل أصبحنا نؤثر عليهما الدرس المتأنى والتفكير المنظم والإحاطة الشاملة والخطوات المتئدة ، والأمر كذلك فى حياتنا الثقافية ، لم تعد تسير خبط عشواء من غير منهج مدروس ، بل أصبحت قائمة على التخطيط والنظر إلى بعيد .

ويوم نتخلص تخلصاً تاماً من غلبة العاطفة على العقل ، يوم نثق أننا وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح للتقدم والرخاء والعزة التى لا يفكر أحد فى الاجتراء عليها ، والكرامة التى تعز على كل منال .



الإنسان يدور حول نفسه

قراءة التاريخ متعة . إنه يلخص لك الحياة الغابرة ، ولكنك تجد فيها سمات الحياة المعاصرة . . إن الإنسان لم يتغير كثيراً على نحو ما يبدو لأول وهلة .. إنك تستطيع أن تجد نظائر لاحصر لها لكل ما يحيط بنا من أحداث وتطورات ومناسبات وشخصيات ، وقعت وعاشت ونمت وتفاعلت منذ مئات السنين ، بل منذ آلاف السنين . ولذلك خلد الفن الأصيل والأدب الأصيل الذى خلقه الإنسان منذ أجيال وأجيال ، نراه وتقرؤه الآن ، ونشهده على خشبة المسرح ، فننفعل به ونتجاوب معه ونعيش أحداثه وعواطفه وغرائزه وتصرفات أبطاله كأنهم بضعة منا وكأننا نحن الممثلون ، وكأن ما يفصل بيننا وبينهم من مئات السنين ليس إلا لمحة أو طرفة عين .

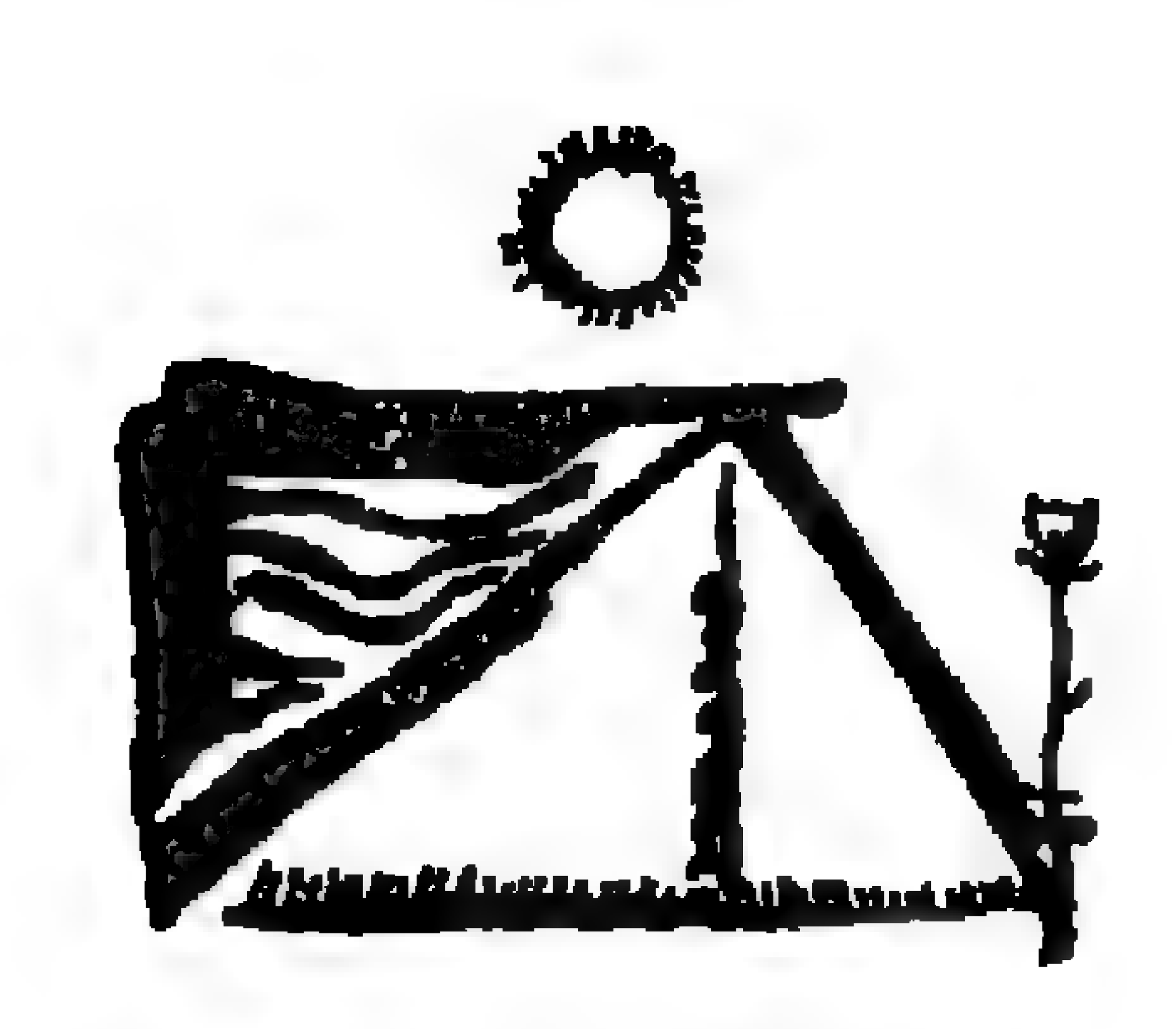
إن النفس الإنسانية فى جوهرها لم تتغير كثيراً . . ما تغير هو الصور والأشكال وفنون اللبس واللهو وأساليب العيش ورفاهية الحديث وأناقة التعبير ، أما الأعماق البعيدة فباقية كما هى لأنها موصولة بما هو أبعد من الظاهر ، وما هو أعمق من الأشكال والصور .

الزنجى من أواسط أفريقيا الذى يعيش حضارياً منذ عشرين قرناً يضع على صدره وحول عنقه الخرز والصدف ويتزين بالوشم والطواطم . . ما الفرق بينه وبين من يعيش عصره ، ويضع على صدره الأوسمة أو يلف حول عنقه سلاسل الخنافس وما أشبهها ؟

العواطف الملفوفة فى أريج الزهر وعطر البنفسج ، الملونة بالهمس الرقيق والغزل الأرق ، ما الفرق بينها وبين عواطف الإنسان منذ مئات السنين ، بل منذ آلاف السنين ، حينما كان الصخب هو وسيلة للتعبير ، وقوة

الجسد هى وسيلة الفوز والوصول . . ما الفرق ؟ أليست النتيجة واحدة ، والجوهر هو المقصود . . إنها صور متغيرة وحقائق إنسانية ونفسية ثابتة .

اقرأ التاريخ وتأمل ، تجد أن الإنسان يدور حول نفسه . .



الانعزال هو الضمور

الإنسان المرتبط بوطنه وأحداثه وتطوراته وهمومه إنسان يعيش ، وهو إنسان نافع للوطن ولنفسه ، فإنك لاتستطيع أن تعيش منعزلا عن مجتمعك ووطنك ، لأنك بذلك تفقد الجذور التى تربطك بالحياة . والإنسان الثابت فى الحياة هو الإنسان المرتبط بأرض ومجتمع وناس ، وإلا كان يعيش فى فراغ وكأنه معلق فى الهواء .

فالذى تسأله عن شىء يتعلق بالوطن ومستقبله ومصيره فيقول لك إنه لا يعرف ، أو لا يهتم ، أو إنه لايشغل نفسه بمثل هذه الموضوعات ، إنسان يعيش على الهامش ، أو لايعيش على الإطلاق . . . يقول لك إنه لايعتنى بشىء آخر غير شئون معاشه وأسرته وأولاده ، وأحياناً ، إذا لم يكن متزوجاً وذا أسرة ، فإنه يقول لك إنه لايعنيه شىء إلا أن يوفر لنفسه ما هو فى حاجة إليه لمتعته وسروره ، إنه إنسان يعيش فى فراغ ، فى تيه بين نفسه وبين الناس ، وهو إنسان منقطع الجذور أو لا جذور له ، هو نبات طفيلى شيطانى ، هزة ضعيفة من ريح أو نفخة رقيقة من مسئولية ، فضلا عن كارثة ، جديرة أن تهده وتذروه مع الرياح .

وإنى لألقى بعض هؤلاء الناس وأعجب بينى وبين نفسى ، لماذا يعيشون ؟ بل كيف يعيشون ؟ وأتساءل كيف يمكن أن يوجد إنسان يعيش لنفسه فقط ؟ ومن حسن الحظ أن عددهم قليل ، ولكن مجرد وجودهم ظاهرة تستحق النظر ... إن الحياة لم توجد مفردة ولامنعزلة ، بل وجدت وفى خاطرها ومن طبيعتها التجمع والالتقاء والتفاهم والعمل معاً . إنها وجدت لتبقى وتزدهر وتتفاعل ، ترى ذلك فى كل الكائنات الحية فى عالم النبات والحيوان ، كما فى عالم الإنسان .

وهى ، بهذه المثابة ، تقضى على المنعزل بالضمور والضعف ، وتقضى عليه جسمياً ونفسياً وعقلياً ، على حين تمنح الذى يسير على ناموسها من حيث التجمع والتآلف والمحبة والتعاون ، صحة جسدية قوية وابتسامة مشرقة تنبع من نفس راضية وإشعاعاً ينبعث من عقل يفكر وقلب ينبض من أجل الجميع .



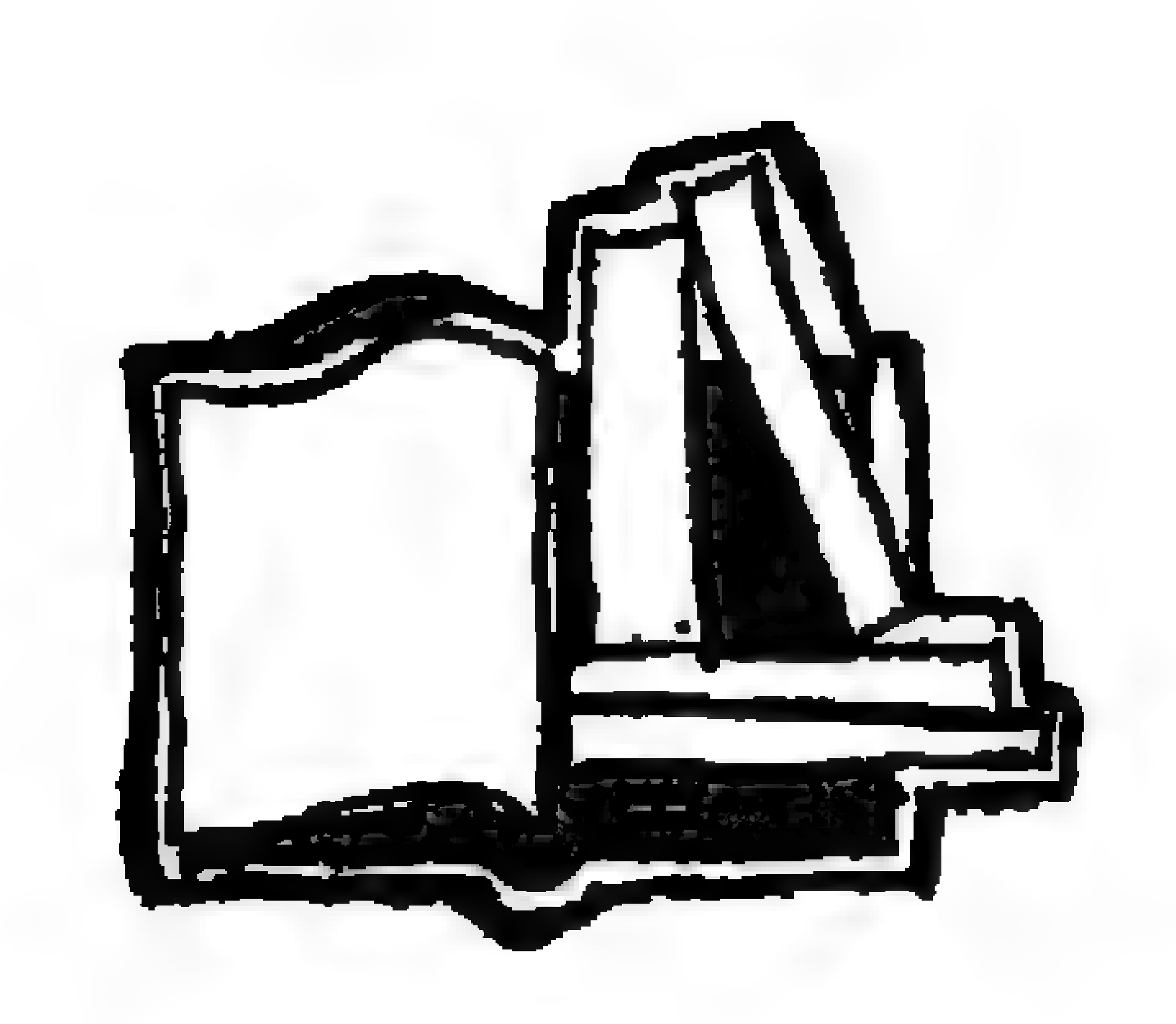
الاختلاف والاتفاق

قال له صاحبه: علمت أن الناس أنواع وأجناس وعقليات ونفسيات، وأنك قلما تجد إنسانين صيغا فى قالب واحد: إن تشابها فى الجسم، اختلفا فى العقل، وإن تشابها فى التفكير اختلفا فى التصرف، وإن تشابها فى الجسم والعقل والتفكير اختلفا أيضاً.. وإنى لأفهم الاختلاف فى الحالتين الأوليين، ولكننى لا أفهمه فى الحالة الثالثة؟

قال إن المشابهة التى قررتها فى الحالتين الأوليين لايمكن أن تكون كاملة، ومن باب أولى ما قررته فى الحالة الثالثة.. فماذا تعنى بتشابه اثنين فى الجسم؟.. إنه تشابه خادع فى الشكل، فى الطول والعرض والملامح، ولكن كيف يفعل الجسم ويتفاعل، كيف تنمو أوتضمر الأعصاب، المخ، العقل، الإدراك... انعكاس الأشياء والأفعال على الجسم، كل أولئك مواقع اختلاف لاشك فيه. وماذا تعنى بتشابه اثنين فى العقل؟ هل تقرره لأنهما يصلان إلى نتيجة واحدة فى المشكلات والقضايا، أو لأنهما يتفقان عادة فى الآراء والاتجاهات... ربما كان هذا هو السبب فيما تقول من تشابه العقلين، ولكننى أقول لك إنه تشابه خادع أيضاً فقد تصل أنت وصاحبك إلى نتيجة واحدة فى مشكلة من المشكلات، ولكن المسالك التى سار فيها عقلك تختلف حتماً عن المسالك التى سار فيها عقل صاحبك. واختلاف المسالك جوهرى وإن اتفقت النتيجة.. اصبر على صاحبك بعض الوقت، وعش أنت وهو ظروفاً مختلفة، فسترى أن النتائج بينكما اختلفت حتماً لوجود ظروف جديدة مضافاً إليها اختلال المسالك السابق على بلوغ النتيجة.

لا تتعب نفسك ياصاحبى فكما اختلفت بصمات الأصابع بين

الناس على هذه الأرض ويعدون بثلاثة آلاف مليون ، كذلك اختلفت عقلياتهم وأجسادهم ونفوسهم وقاوبهم ، ولحكمة أرادت الطبيعة ذلك ، فالاتفاق التام بين الناس مستحيل . قد يتفقون فى بعض المشاعر والآمال والتطلعات ، ولكنه اتفاق جزئى أما الاتفاق الكلى فى جميع الأشياء والأفعال والاستعدادات والهيئات فأمر لم ترده الطبيعة ، وإرادة الطبيعة غالبة ، وهى إرادة خير بالإنسان ، فإن الاختلاف رحمة ودافع إلى التطور والتقدم لكى تحلو الحياة .



عقول القطيع

قال له صاحبه: أرأيت إلى فلان هذا، مرت به تجارب كثيرة مارسها وخبر حلوها ومرها، لماذا إذا واجهته تجربة مشابهة استقبلها وكأن لم يشهد مثلها، وقد عرفت أن التجربة خير معلم، فما له لا يتعلم منها؟

قال: التجربة تمر ببعض الناس وكأنه حجر أملس تنزلق من على سطحه دون أن تترك أثراً وتمر بآخر فإذا هو يستوعبها ويستنشقها، تدخل في دمه ووعيه وتصبح جزءاً من خلقه وسلوكه وشخصيته.

سأل: ألا توجد سبيل يتعلم بها الإنسان كيف يتعلم من التجربة؟

قال: التجربة درس عملي. وما تتلقاه عن معلمك وأستاذك فى المدرسة والجامعة درس نظرى. ومن الناس من يحفظون عن ظهر قلب ما تلقوه فى المدرسة والجامعة، فإذا مارسوا الحياة العملية لم يعرفوا كيف يطبقون ما تلقوه على ما يعرض لهم... إنهم مجرد ببغاوات يحفظون ما يلقى عليهم ولكن لا يهضمونه ولا يتمثلونه ولا يضيفون منه شيئاً إلى شخصياتهم وذواتهم، وأمرهم كأمر هؤلاء الذى يعانون التجربة فتنحدر من سطح أملس إلى الهواء وكأنها لم تكن ولم تكن معاناة...

سأل: عن ضعف فى الذاكرة أو ضعف فى العقل؟

قال: لا عن ضعف فى أيهما، ولكن من الناس وهبوا عقولا تستوعب وتبدع، ومنهم من وهبوا عقولا تسمع وتكرر،

تمتص الرحيق وتفرزه كما هو بلا زيادة ولا نقصان .
الأولون أصحاب الإبداع والجديد والرأى والحركة ، والآخرون
أنماط متشابهة يتبعون ولايقودون ، لهم عقول ولكنها عقول
القطيع .



الأردية فى الدنيا كثيرة

بعض الرذائل تتخلى عنا ، تهجرنا ، تتركنا لأسباب عديدة ، فقد نصبح غير قادرين على ممارستها ، أو تصبح ممارستها باهظة التكاليف بالقياس إلى قدراتنا ، وقد تكون هذه التكاليف مالية أو صحية أو جنائية . ولا ينبغى فى هذه الحالة أن ندعى لأنفسنا فضلا فى تركها أو ننتحل بطولات لا وجود لها . .

عرفت من كف عن شرب الخمر وممارسة الرذيلة لأن صحته ساءت وأمواله تسربت من بين يديه فاستبدل بها الصلاة والصوم واصطناع الفضيلة والصلاح ، وأضحى أشبه بالحمامة الوديعة بعد أن كان كالصقر الجارح ، ثم شفى من مرضه وجرى المال مرة أخرى بين يديه ، فخلع ثوبه المستعار ورجع إلى ثوبه الأصيل أشد نهماً .

وهذا الطراز من الناس تلقاه فى كل مكان . فإن من العفة ألا تجد . فصاحب الذمة الخربة قد لايمارس السرقة والاختلاس لأنه لايجد من يسرقه أو ما يختلسه ، أو لايجد الوسيلة إلى أيهما ، والعفة هنا رداء زائف ، وقد يختلط أمره على الناس ، فيثقون فيه ، ويسلمون إليه شأنهم ، ثم يكون منه ما يكون من الثعلب ، ينقاد إليك ضعفاً ، فإذا واتته الفرصة شد عليك الوثاق .

الأردية فى الدنيا كثيرة ، والمظاهر المحكمة خادعة باطشة ، والفضيلة المنتحلة عن عجز أو ضعف أسوأ من الرذيلة التى يمارسها صاحبها عن قوة وبطش . . . الأولى رداء براق يخفى أنياباً كاسرة ، والبريق يعشى العيون ويبهرها فلا تميز بين الصدق والكذب ، وبين الثوب الموشى من فضيلة

أصيلة والموشى من رذيلة خفية ، والثانية واضحة معلنة تستطيع أن تواجهها وتحتميها .

ولكن كم من الناس يلبس ثوبه الأصيل ؟

والشاعر يقول :

البس لكل زمان بردة حضرت
حتى تحاك لك الأخرى من البرد



يخدع نفسه

أرأيت إلى إنسان ذى وجهين ، يحدثك بلسان حلو ، فإذا توليت عنه سلقك بلسان حاد . .

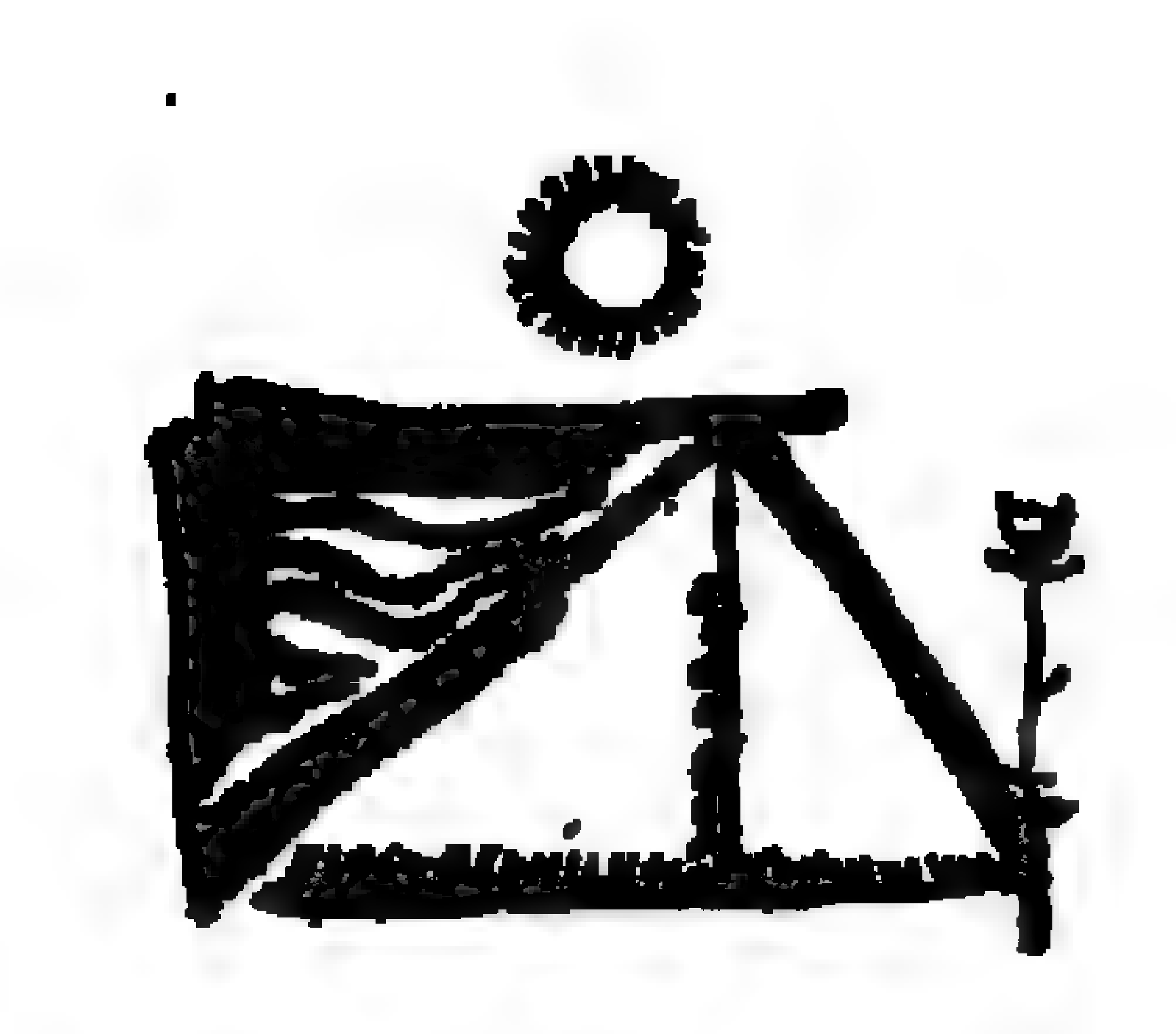
أرأيت إلى من يدخر لنفسه وجوهاً عدة يرتديها فى كل حالة طبقاً لظروفها ، فهو أشبه بالممثل على المسرح ، ليلة يرتدى ثياب أمير وغداً ثياب شحاذ ، فى ليلة رجل أمين صادق ، وفى ليلة أخرى رجل مخاتل مخادع ، وفى ليلة ثالثه مهرج مهزار ، وفى ليلة رابعة رجل وقور مهيب ، فإذا انفض التمثيل ارتدى ثيابه الحقيقية ، فلم تعد تعرف إلى أى من أدواره ينتمى ؟

أرأيت إلى إنسان قلما تراه إلا باسما باشًّا مقبلا عليك كأنك صديق صدوق ، ويصنع الشىء نفسه مع كل الناس ، حتى لكأنهم جميعاً له الأصدقاء الخلصاء ، وتعجب بينك وبين نفسك من هذا الملاك الذى ألغى من القاموس كلمة الأعداء ، وجعل كل الناس له خلصاء . وتسأل ربك وربنا أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يجعل منه قدوة صالحة للأصدقاء والأعداء . .

أرأيت إلى هذا الإنسان ، إذا عرفت سريرته ، فطالعتك منها صفحة سوداء ، ماذا تقول عنه وبماذا يكون حكمك عليه وعلى الناس ؟ تقول إنه ماهر والناس بلهاء . . تقول إنه ساحر والناس عوام جهلاء . . تقول إنه حكيم والناس أغبياء . . أم تقول مخادع لايخدع إلا نفسه ولابد أن ينكشف عنه ذات يوم ما تستر به من غطاء !

القول الثانى أجدر به وأصدق ، فإن فى الناس لمسة من الفطنه خافية ،

وفيهم لمحة من حبس لايخطئ ، إذا انخدعوا مرة فلن ينخدعوا كل مرة ، وإذا غشيت عيونهم غاشية فإنها عما قريب تنجلى ، فإذا ابتسم هذا الخبيث بدت لهم وراء ابتسامته خلقة شوهاء ، وإذا ضحك برزت لهم وراء أسنانه داهية دهياء . . يحسب أنه يخدع الناس ، وما يخدع إلا نفسه .



وحدة العالم

الأدب والفن والثقافة والعلم لا وطن لها ، فوطنها العالم كله ومصدرها الإنسانية ، بجذورها القديمة الضاربة منذ الأزل ، الذاهبة إلى الأبد . ومن هنا كان التراث الثقافى والأدبى والفنى ملكاً مشاعاً للجميع . وما استحدث من نظريات وما وصل إليه العلم من كشوف واختراعات ، شبيهة بما حققه الفن والأدب من تعبير عن النفس الإنسانية وتصويرها ، كل أولئك لايبحث الناس عن صاحبه ، وما إذا كان من هذه الجنسية أو تلك ، من هذه القومية أوتلك ، من شعب صديق أو عدو ، وإنما يستمتعون بالكشف والاختراع ، بالفن أو الأدب كتراث إنسانى حضارى.. والآثار القديمة بعض هذا التراث ، لأنها بعض حياة الإنسان وتطوره من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية ، فهى ملك للجنس البشرى وإن كانت تنتمى بالمولد والمكان إلى أرض معينة وشعب معين .

كان هذا هو الشأن فى معابد أبو سمبل ، تنتمى من حيث المولد والمكان إلى الفراعنة وأرض النيل ، ولكنها من حيث القيمة الثقافية تنتمى إلى الجنس البشرى كله ، ولذلك لقيت الدعوة إلى صيانتها والاحتفاظ بها تقبلا وارتياحاً ومساهمة من كافة الأجناس والقوميات والحضارات .

ومن مفاخر وطننا أنه أعطى الحضارة بعض ركائزها العميقة العريقة ، ومن مفاخر الجنس البشرى أنه قادر فى كل الظروف وعلى الرغم من كل الظروف على الارتفاع إلى المستوى الإنسانى . وقد شعرنا بكل هذه المعانى ونحن نرى ممثلى ٤٠ دولة من دول العالم ليسوا كلهم أصدقاء ، قد اجتمعوا فى أخوة رائعة للاحتفال بالنجاح الباهر الذى صاحب

العلماء والفنانين والعمال من كافة الأرض فى إنقاذ بعض معالم الحضارة القديمة . إن نشر الثقافة والفن والعلم والأدب هو أقصر[1] الطرق للقضاء على الفروق والحزازات والعداوات وأسباب التعصب بين بنى الإنسان ، سواء كانت ترجع إلى الجنس أو اللون أو الدين أو الدم .



البساطة

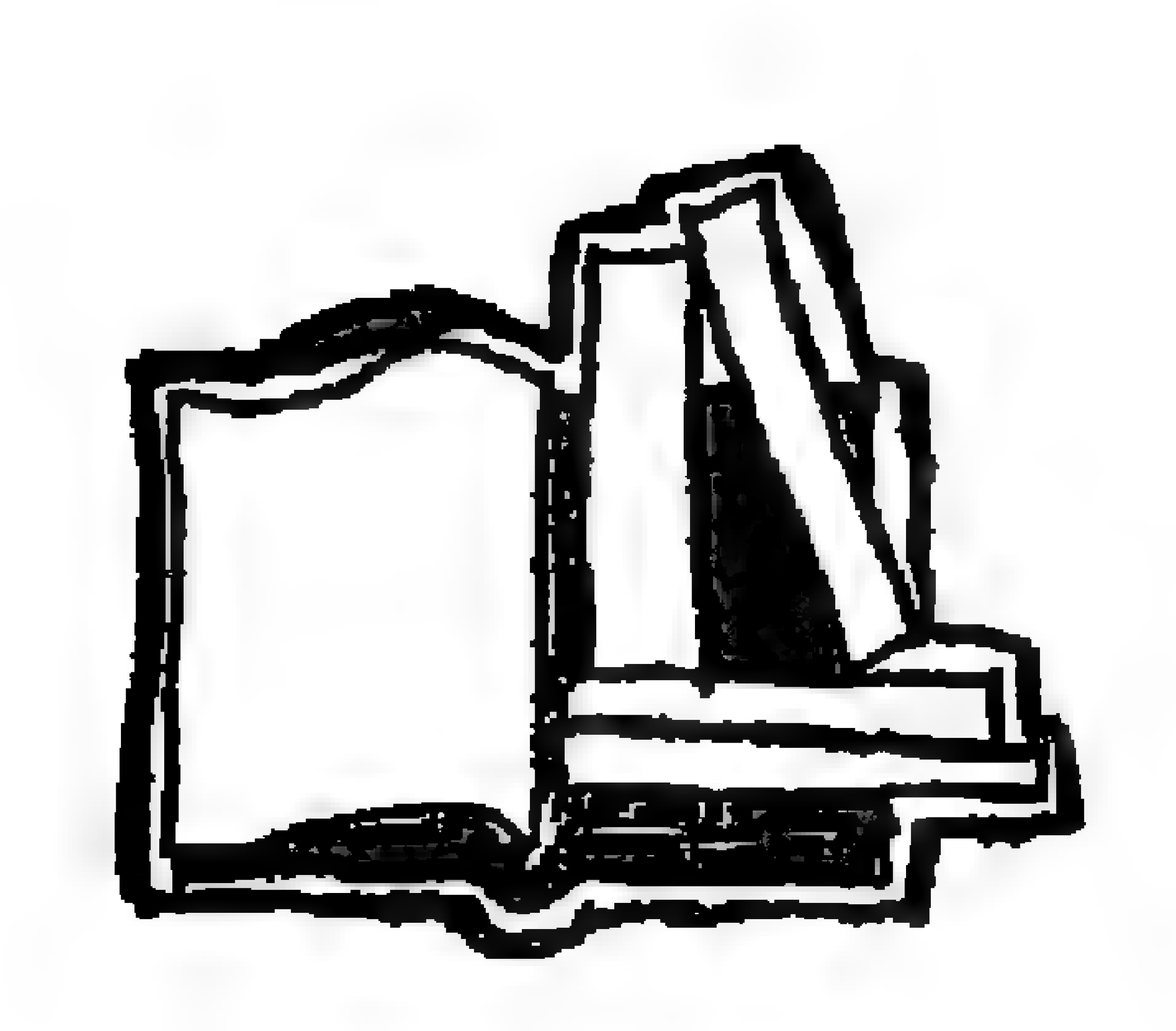
البساطة هى الجمال ، وكالبساطة الوضوح ، فالإنسان البسيط الواضح أقرب إلى العقول والقلوب من الإنسان المعقد الغامض ، وحينما أقول البساطة أعنيها فى التصرف والحديث والإشارة ، كما أعنيها فى اللباس والطعام ، وعلى الجملة أنظر إليها كسلوك فى الحياة . والبساطة تعنى الصدق . والصدق لا يكون فيما تنقل من أخبار أو تعتنق من آراء فحسب ، ولكنه يكون أيضاً فيما تظهر به أمام الناس ، محباً أو كارهاً ، متعاطفاً أو ساخطاً ، راضياً أو غاضباً . والرياء لايجذب إليك القلوب ، حتى ولو كنت فى كل الأحوال المجامل المبتسم العطوف . . ففى كل هذه الأحوال ، إن لم يكن الصدق وراءها جميعاً ، فقدت هذا الشعاع الإنسانى الخفى الذى يربط بين القلب والقلب .

ومن الابتسام ما تكرهه وتنفر منه ، ومن الغضب ما يحلو لك وتتعاطف معه ، لأنك تحس فى الأول الرياء وتحس فى الثانى إشراق الصدق وبساطة الانفعال . والابتسامة الصادقة تمنحك الصحة الجيدة إلى جانب ماتمنحك من تعاطف الناس معك ، والابتسامة الصفراء لا تعطى إلا مشقة التصنع ، والتصنع يثقل على الأعصاب ويتلفها ويباعد بينك وبين الناس .

عرفت من الناس من يريح النفس النظر إلى وجهه ، وعرفت منهم من يتعبها النظر إليه . والجمال راحة للنفس والقبح إرهاق لها ، فليس الجمال تناسباً فى التقاطيع ، ولكنه قبل كل شىء ، إشراق فى النفس ، والنفس الجميلة أشد تأثيراً من الوجه الجميل ، فليس لمن لم يوهب الوسامة

أن يأسو ، فإنه قادر بنفس طيبة راضية أن يبلغ بها ما لا يبلغ بالجمال . وقد كان الجمال فى أحيان كثيرة نقمة على أصحابه ، ولكن النفس الراضية المطمئنة لا تكون إلا نعمة من الأنعم المضيئة .

الجمال عارية مستردة ، والنفس الطيبة جوهر لا يسترد .



التنظيم

هل أنت منظم فى حياتك ؟ هل تعرف مالك وما عليك ؟ أستطيع أن أجيب نيابة عنك وعنا ، نحن المصريين ، أن أكثرنا لايعرف النظام فى حياته ، لافى مواعيده ولا فى وقت راحته ووقت عمله لا فى وقت جده ولا وقت عبثه .. وأكثرنا يعتذر عن ذلك بأنه يتركها لله ... ولابأس من أن نترك كل شىء لله بل إنه فعلا له ، سواء أردنا أم لم نرد ، ولكن الذى لاينبغى أن يكون أن تصبح حياتنا بغير قيود وتنظيم . نحن لا نقل عن أعظم الشعوب رقياً فى الذكاء والمقدرة على الابتكار ، نحن لسنا شعباً نمطياً ، وأعنى بالشعب النمطى الشعب الذى يسير على وتيرة واحدة وليست لديه القدرة على الخلق والإبداع . . كل الذى ينقصنا هو النظام والتزامه والدقة فيه ، وهو نقص يجنى على الذكاء والاجتهاد والجهد فى العمل ويقلل حصيلتها إلى حد كبير ... والنظام لايحتاج إلى ذكاء أو قدرة خارقة، يحتاج فقط إلى التعود . ولو سألت أى مواطن فى الدول المتقدمة فى الحضارة والعلم والإنتاج عن برنامجه فى شهر قادم أو شهرين وربما فى سنة ، لأعطاك بياناً كافياً مدروساً . . . نفقاته ومشروعاته فى عمله ورحلاته للترفيه ، مواعيده والتزاماته القريبة والبعيدة ، متى تحل عليه أقساط الأشياء التى اشتراها بالأجل . وعلى الجملة كل ما يمكن أن يخطر على بالك بما فيه الرسم لمستقبل أولاده القريب والبعيد . من منا يفعل ذلك ؟ قلة دون شك ، وهذا سبب من أسباب تخلفنا سواء فى العمل الخاص أو العام ، سواء فى حياتنا كأفراد أو حياتنا كشعب .

ماذا عليك لو بدأت بوضع تخطيط واف لعام فى حدود إمكانياتك وظروفك مع حساب كل الطوارئ . . إنك لو فعلت هذا ، فسترى كم

أرحت نفسك من الارتباك والقلق ، وفرغت إلى عملك تؤديه على أحسن وجه ، وإلى شئون أسرتك ترعاها فى هدوء ودقة ، وإلى الشئون العامة تستوعبها وتشترك فيها بذهن صاف ، وسترى أن صلاتك بأصدقائك ومجتمعك تحسنت وتوثقت لأنك قطعاً ستفى بمواعيدك وتعهداتك ، وستؤدى واجباتك الأسرية والمهنية والتقليدية من غير عناء . إن النظام يضاعف الوقت ، ويريح العقل والجسد ، ويزيد من القدرة على الإنتاج ويجعل الإنسان متحضراً فى تفكيره وسلوكه .



الخيط المقطوع

وأخذت الفتاة إبرتها بين يديها واسترسلت تجمع خيوطاً بعضها إلى بعض.

وسألها زوجها : ماذا تصنعين ؟

قالت : « جرسي » .

قال : لمن يكون ؟

قالت : لمن تظنه ؟

قال : لك ؟

نظرت إليه بعينين فيهما عتب واستسلام وإيمان وقالت : لي أنا؟ كلا. بل هو لك . كل شيء لك . أما أنا فدعك مني ، ولست آسفة إلا على شيء واحد . كنت أحب أن أعيش لأرى آمالك كلها قد تحققت ، ولكنني سأرتاح في نهايتي ، إذ أشعر أنك موفق في الحياة وأنا واثقة من ذلك فأنت تستحق كل خير . وإنسان آخر غيرك كان قد ضاق بي . ولست مستطيعة أن أجزيك شيئاً فالله يحفظك ويحميك .

قال : إن الشباب يملأ وجهك نضرة وعينيك بريقاً ، ستعيشين ستعيشين .

قالت : اسألني ، فأنا أعرف .

ورفعت إليه عينين فيهما شعاع غريب من السلام واليأس وسألت : أتلك التي تحب إنساناً في الحياة يكون من نصيبها بعد الموت ؟

قال : إنك تذهبين إلى تصورات بعيدة ، نحن هنا في الدنيا ، ما لنا وللموت !

قالت : إن هواجس نفسي لا تكذب . ثلاثة أشهر أو أربعة ، أتعد بأن تزور قبري ؟ إني لا أكلفك كثيراً ، كل شهر مرة .

ولم يكمل « الجرسى » الذى كانت تصنعه للشتاء ، انقطع الخيط . ثقل عليها المرض . صدقت النبوءة والهواجس . وبعد ثلاثة أشهر كانت تثوى فى قبرها .

وكانت أشهراً قاسية . وكان هذا الشاب قليل التجربة فى الحياة ، لم تكن قد ضغطت عليه هذا الضغط العنيف ، ولم يكن قد شهد من قبل حياة تتسرب من مريض فى مثل هذه القسوة ، فلم يكن له ملجأ إلا ربه ودموعه ، كان يخلو إليها فى سكون الليل وأنفاس هذا الطفل الصغير تتردد إلى جواره ، حتى إذا أصبح الصباح وفتح الطفل عينيه ، بسم أبوه فى وجهه وقال :

— هيا يا بنى ، انظر هذه اللعبة لك ، هذا « الأتومبيل » الكبير ، قطار « الديزل » ، سأشترى لك اليوم بندقية .

وينطلق الطفل لاهياً بأتومبيله وقطاره .

— بابا . . . بابا الديزل بيجرى عليك .

« أنا عارف إن ماما لما تيجى حتفرح بيه . ابعت لها جواب قول لها : إننى اشتريت ديزل زى ديزل حلوان » .

عيد الميلاد

منذ أكثر من مائة سنة زار الكاتب الأمريكي « واشنجطون إرفنج » إنجلترا ، وقضى فيها أشهراً ، شهد خلالها الاحتفال بعيد الميلاد . وكتب على إثر عودته إلى أمريكا فصولا رائعة رسم فيها صوراً باهرة للحياة فى إنجلترا . تحدث عن كنيسة وستمنستر ، وستراتفورد أون آفون ، وجنازات الريف ، وجون بول ، وبريطانيا الصغيرة ، ويوم الأحد فى لندن ، وآثار لندن ، ومساء عيد الميلاد ، ويوم الميلاد ، وعشاء عيد الميلاد .

وفى كل هذه الفصول لم تتخل عن « إرفنج » دقته فى التصوير . وبراعته فى النفوذ إلى القلب ، وإجادته التعبير عن مشاعر النفس . وإنك لتحس دائماً وأنت تقرأ « إرفنج » كأنما نفسك هى التى تتحدث ، وكيانك يهتز لكل مشاعره وانفعالاته .

والفصول التى كتبها عن عيد الميلاد ، لم يكتبها كمسيحى ، لكن كرجل تتفجر فى نفسه ينابيع المحبة ، وعواطف الرحمة والإيثار والاحتفال بكل ما هو إنسانى ، وبكل ما هو سام ونبيل . انظر إلى هذه العبارات التى كتبها مساء عيد الميلاد فى إنجلترا .

« ولرجل غريب مثلى فى هذه البلاد لم يكن هناك من قلب ينبض له ، ولا بيت يفتح بابه ، ولا صداقة حارة تستقبلنى عند عتباته ، ومع ذلك شعرت كأن روح اليوم يلتمع فى نفسى من النظرات الهنية التى كانت تحيط بى . حقاً إن السعادة كالنور النازل من السماء تنعكس من نفس إلى نفس . فقد كنت أرى كل الوجوه مشرقة بالبسمات ، غنية بالمتاع ، وكأنها مرآة تنقل إلى الآخرين أشعة هذا الخير الملتمع أبداً . من يستطيع أن ينفصل عن هذا الجو ؟ من يستطيع أن يجلس منفرداً ، مظلم الوجه ،

غارقاً فى وحدته على حين يرى كل ما حوله بساماً مضيئاً ؟ » .

ثم انظر إلى هذه العبارات : « فى هذه اللحظات يعود الحب المبكر مخضراً زاهياً وكأنه يهزأ بالسنين . . وتزكو فكرة البيت معطرة بشذاه ، توقظ الروح النائم وكأنها نسمات الصحراء فى بلاد العرب ، تهب مرطبة على الحجيج المتعب . فى هذا اليوم تجتمع مرة أخرى صلات الأسرة التى انقطعت . يعود إليها أولادها الذين فصلت بينهم أفراح الدنيا وأتراحها ، وضربوا فى سهولها ووهادها ، وظلت تباعد بينهم حولا بعد حول . يعود هؤلاء جميعاً إلى صدر واحد . كل منهم إلى البيت الذى نشأ فيه ، وترعرعت فى حمى الطفولة أمانيه .

« إن الأعياد الأخرى قد تكسب بهجتها من الطبيعة الحالية والزهور الزاهرة . أما بهجة هذا العيد فترجع إلى الكنوز العميقة من المحبة والعطف والسلام التى تختفى فى صدورنا فنلجأ إليها فإذا بها تغمرنا محبة ونعمة وصفاء . أين يمكن فى غير هذا اليوم أن يشرق الوجه ببسمة أكثر رحمة وودًّا وسراء ؟ وهل فى غيره تكون لمعة الحب الخجول أكثر حلاوة وإفصاحاً ؟ »

لست مسيحيًّا ، ولكننى حينما قرأت « إرفنج » عن عيد الميلاد ، شعرت بينبوع المحبة الإنسانية الذى يتدفق من كلمات هذا الرجل ، وسألت نفسى لماذا لا يعيش الناس إخوة ؟ لماذا يخضبون بالدم وجه الأرض ؟ !

دورك فى الحياة

كل منا يجرد حسابه اليوم مع العام الذى يسلم أنفاسه ، مع منتصف الليل . بدأناه وفى خواطرنا آمال ، وفى عقولنا تخطيط لما نريد تحقيقه . ماذا تم منها ؟ وماذا بقى لكى ينتظر عاماً آخر أو أكثر؟ . . والمسألة ليست حساباً فقط لكن مساءلة ، فلا بد أن يسأل كل منا نفسه لماذا عجز عن تحقيق ما خططه . . . هل كان العجز لأنه جاوز بالأمل حدود الممكن ، أو لأنه لم يبذل ما كان ينبغى أن يبذل من جهد ، أو لأن حوادث لم تكن فى الحسبان ولا سلطان عليها لأحد ، تدخلت فأفسدت التخطيط ؟ !

أيًّا كان السبب فالمراجعة ضرورية لا لرد ما فات ، فإن مافات لا سبيل إلى رده، لكن تأهباً لاستقبال عام جديد يمكن أن نحصل فيه مافات ، ونعالج ما وقعنا فيه من خطأ .

إن التجربة حصيلة عظيمة القيمة ، وهى ثروة لاتقدر ، وما نسكبه فيها من ألم أو نعانيه من تضحية يمكن تعويضه أضعافاً لو حاذرنا أن نقع فيما سبق من أخطاء ، وازددنا مع الأيام نضجاً وقدرة وفهماً . . إننا لا نكبر مع مرور الأيام بالعمر ، ولكننا نكبر بالتجربة والقدرة والفهم . ولو كان مرور الأيام لايزيدنا إلا ارتفاعاً فى السن لكان مرورها عبثاً ومأساة .

[و]سنة تمر من العمر لا قياس لها إلا بما حصلناه منها ، أما إذا كنا خرجنا منها كما دخلناها ، فكأننا نسفح العمر والأيام ويستوى أن تمر أو لاتمر ، أن تزيد أعمارنا طولا أو أن تنتهى عندما بلغته .

إن الحساب الحقيقى للإنسان عن سنة مضت هو كم زاد فى معلوماته؟ . .

كم قرأ وفهم وأثرى عقله بالمعرفة؟ . . ماذا استفاد من تجاربه وتجارب الآخرين ؟ .. ماذا أضاف من خير لنفسه وذويه ووطنه ؟ .. وماذا رفع من شر عنهم؟ . . إن الحياة لاتمر عبثاً ، وما يصادفنا فيها ليس مسرحية نتفرج عليها ثم يسدل الستار . نحن فى صميمها ، على خشبة المسرح . . . لا بد أن يكون لنا دور دائر وكفاح .

لابد أن نمتزج بالخير الذى فيها والشر ، ولابد أن نستنبط من كل منهما حكمة ونعيشهما طولا وعرضاً ، تزكو مع الأيام نفوسنا وترتفع قاماتنا وتستقيم خطانا صوب هدف نعرفه ونعمل من أجله . والإنسان من غير هدف إنسان ضائع فى تيه الحياة ، والضياع فراغ . والفراغ جمود ، والجمود قرين الموت . . .

لابد أن نتطور ونتقدم ونتحرك ونعمل وننجح ونخفق ونحقق ما نريد أو لا نكف عن السعى لتحقيقه !

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٦٤٢ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١



هذه مختارات من « نحو النور » وهو العمود الذى اعتاد المؤلف كتابته يوميا منذ سنوات عديدة ، وقد تحرى فى اختيارها أن تكون ذات قيمة دائمة لا يغض عنها الزمن ولا تتعلق بمناسبة من المناسبات لأنها ترجع إلى طبيعة الإنسان : نفسه وروحه ووجدانه ، وليس فى طبيعة الإنسان ما يتغير تغيراً جذريا . قد يتطور الإنسان ؛ قد يتقلب ، قد يتوهج أو يخمد ، ولكنه فى كل الأحوال مرتد إلى نواميس ثابتة تتعدد فيها الصور والوجوه والانفعالات ، ولكن الجذور التى تصدر منها واحدة فى كل زمان ومجال ومكان .

وفى هذه المختارات لمحات عن الحرب والسياسة والاقتصاد ونظم الحكم ، كما أن فيها لمحات عن الحب والكراهية والحقد والطمع والتظاهر والغرور والنفاق والكذب ، وفيها لمحات عن الدين والإيمان ووحدة الكون وسلطان الطبيعة . . . فيها صور رقيقة أو عنيفة لشخصيات نراها ونعرفها ونعايشها ، وفيها أيضاً لمحات عن المعوج من أمورنا وما نرجو لها من صلاح .